د. برهان زريق

ثورة منطقة الحفة

(صهيون سابقاً)

على المستعمر الفرنسي 1918

قراءة انتربولوجية، سياسية، اجتماعية، تحليلة، وصفية..

٢٠١

ثورة منطقة الحفة (صهيون سابقاً)
على المستعمر الفرنسي 1918

ثورة منطقة الحفة (صهيون سابقاً) على المستعمر الفرنسي 1918

د: برهان زريق

ثورة منطقة الحفة (صهيون سابقاً)
على المستعمر الفرنسي 1918
((قراءة انتربولوجية، سياسية، اجتماعية، تحليلة، وصفية))
د: برهان زريق
الطبعة الأولى 2011

توزيع مكتبة بالميرا
اللاذقية شارع 8 آذار
TL: 00963 41 461888
E - Mail: palmyrabooks@yahoo.com

الرؤية والمنهج

لا حاجة للقول بأن لكل بحث رؤيته ومنهجه، فالرؤية هي موضوع البحث ومادته وتصوره وروحه، والمنهج هو السبيل الخاص وطريق البحث المحدد المعين الذي ينتهجه الباحث للوصول إلى حقيقته ومبتغاه.

فالرؤية تستدعي المنهج وتحدده وتعينه لأنه وسيلتها الخاصّة وطريقها المعيّن الذي يدور في فلكها، وهو في الآن نفسه جسدها ووطنها وروحها، قال تعالى موضحاً أهمية المنهج بالنسبة للرؤية: " ماء مهين في قرار مكين".

فماء الحياة ولو كان مهيناً ضعيفاً لا بد له من قرار مكين - الوسيلة - يحميه ويوطن ويوطد أركانه.

قال الشاعر مصوراً هذه العلاقة بين المبنى والمعنى بين الغاية ووسيلتها:

فلطف المباني في الحقيقة تابع للطف المعاني والمعاني بها تسمو

والخلاصة فالموضوع يطرح منهجه ويحدده – والمنهج وهو الطريق القويم – يغنيه إمتاعاً ومضموناً ويقومه ويكشف أخطاءه، لا الرؤية تستبق المنهج ولا المنهج يستبق الرؤية، وكل في فلك يسبحون[1].

ويذهب بي العقل الاستطرادي إلى تقرير ناحية هامة هي أن تاريخنا لم يول اهتمامه بالوسائل والطرق وعلم الإجراء، مع أن الإجراء أو الوسيلة تتكافأ شرفاً مع الغاية، ومع أن بعض العلوم – كالقانون - يغلب فيها الإجراء على الموضوع، ويبرز فيها الفن والتقنية "technique".

وإذا كنا نعتذر لهذه الإطالة، فهو عذر يجد مبرره في أهمية موضوع الدراسة.

إن السؤال الذي يطرح نفسه، ما هو المنهج الذي اتبعناه في بحث وتحليل وحرث موضوعنا؟

يلاحظ أننا لم نتبع طريقة العلوم المدونة بحثاً وحرثاً وتنقيباً واستدلالاً، وإنما سلكنا نهج العلوم النقلية الشفوية معايشة ومعاقلة وتفاعلاً.

---

[1] هنا استعملت كلمة يسبحون استعمالاً تضمينياً دون المراعاة لقواعد الصرف والنحو.

ونحن لا نستهين بهذا المنهج – الذي هو علمي في حد ذاته - باعتباره أمثل المناهج، بل لأنه الطريق الأكفأ المناسب لموضوعنا الذي يتفق مع الطبيعة الذاتية للبحث والنسب المركوزة فيه.

فعلم التاريخ مثلاً – وموضوعنا فرع من هذا العلم - يسلك فيما يتعلق بدراسة التاريخ غير المدون الطريق نفسه، لا بل إننا نجد علماً فذاً بزّ العلوم بموضوعيته وكانت له الأفضال الكبرى على علم النقد التاريخي، هذا العلم هو علم مصطلح الحديث في تاريخنا الحضاري، فقد قام هذا العلم على أسس وضوابط من الدقة الإستقراء والجرح والتعديل، مما يزين جباهنا فخراً ورفعة.

ومن جهة أخرى فالذي حدا بنا لإتباع هذا المنهج – منهج التفاعل الشفوي مع الحدث والمعايشة له والاتصال المباشر به والمعاناة والمعانقة له – هو شحة المصادر المكتوبة وقلتها وضعفها ومعانقتها للموضوع من بعيد ومن الخارج.

هذا وقد اتضح لنا أن هذه الظاهرة الأقرب إلى التعبير عن ضمير الجماعة ووجدانها وتسجيل أحداثها بالمعايشة والمعاناة والمكابدة اليومية، بل إن معايشة الحدث كان هو المفضل علمياً بسبب حدته وحرارته وشفافيته حتى أن أحدهم وصف العرف بأنه الإله الثاني.

وفي الحقيقة لم يجر أي تدوين لحدثنا باستثناء التدوينات العارضة والتسجيلات الجزئية الطارئة، ولم يقم أي شخص بدراسة كلية علمية كاملة للموضوع، إبان الاستعمار الفرنسي، لأن هذا الاستعمار كان يحارب كل ظاهرة إيجابية، كما أن ذلك لم يحدث في الحقبة الاستقلالية الوطنية، لأن السلطة السياسية في هذه الحقبة، ورثت من الاستعمار الفرنسي جهازاً بيروقراطياً روتينياً سقه وهمّش وحارب منطقة جبل صلاح الدين (صهيون)، وإنني لا ألقي هذا الكلام على عواهنه، وقد رأيت بأم عيني مدى الاضطهاد الذي مارسته الأجهزة البيروقراطية لمجرد حدوث حادث أمني بسيط، ولعل منطق السلطة في ذلك، هو أن جبل صهيون (صلاح الدين)، ملتهب دائماً وحاد وحار، وبالتالي فهو صنو التمرد بعينه وتوأم اللاستقرار بلحمته وسداه، مع التنويه استطراداً بأن منطقة

صلاح الدين لعبت دوراً تاريخياً استراتيجياً، إذ حققت الاستقرار والأمن في المنطقة طيلة العهد التركي صعوداً حتى عصر البطل الأواه المنيب صلاح الدين الأيوبي، فإذا بالاستعمار الفرنسي ينعت هذه المنطقة بأنها رمز التوتر والاضطراب، وما حقيقة الأمر إلا صورة الاضطراب عليه.

ونقطة ثانية جديرة بالتنويه والإلحاح والذكر، هي أنه جرت محاولات في العهد الوطني لتدوين ثورة منطقة صلاح الدين، ولكن هذه المحاولات كانت نتفاً تجميلية تزويقية بيروقراطية مبعثرة ابتعدت عن الأسلوب العلمي لتسقط في براثن قصر النظر وشحوب التفكير ونقص الأسلوب في التحليل والتنقيب والحرث والتعليل، هذا فضلاً عن أنها نتف مجتزأة من هنا وهناك لم تعالج الموضوع بصورة متكاملة ومتعاضدة.

أقول ذلك لأن بعض عدسات وكاميرات التلفاز تعاملت مع الحدث بأسلوب زخرفي تزييني يقتصر على تصوير عرضي وصفي لبعض المشاهدات الحسية للحادث أو لاستقصاء شحيح له، والأمر نفسه بالنسبة للأخباريين، نقول أخباريين، وليس علماء على ما تقتضيه الأجهزة المفاهيمية المصطلحية لعلم التاريخ.

وحقيقة الأمر أن هذه الثورة كانت مادة تلفزيونية، شغلت كاميراتها كثيراً وعلماءها قليلاً، فكان رجال الإذاعة أو التلفزيون غالباً ما يصلون إلى الحفة – مركز القضاء - ويتصلون ببعض الأشخاص ليتزودوا بالمعلومات الجذابة المجتزأة[1] ويسجلون بعض الصفحات العارضة المظهرية العاطفية عن تاريخ الثورة، مما لا يروي ظمأ البحث العلمي أو يسد رمقه في معرفة الأسباب الحقيقية.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن أحداث الثورة رفعت من شأن منطقة صهيون لدى الضمير العام الوطني في سورية، وخاصة لدى أبناء اللاذقية – مما حدا أبناء منطقة الثورة لأن يتغنوا

---

[1] هنالك علاقة تاريخية دافئة وحميمية بين أبناء اللاذقية و أبناء منطقة صلاح الدين حدت أبناء هذه المنطقة أن يسكنوا بين ظهراني أهلهم، وهنالك روابط مصاهرة متعددة تعبيراً عن ذلك.

ويفتخروا بها، ويعيشوها في أوقات حياتهم ويرددوها على كل لسان، وهذا ما هيأ للأحداث التفصيلية للثورة من الاستمرار والذيوع والانتشار، مع الإشارة والتأكيد والتدليل بأن الفرنسي وضع كل عائق مستقبلي في وجه منطقة الثورة، لا لشيء إلا لأنها رمز فذ ومثال شامخ للحضارة العربية الإسلامية.

مغزى ذلك أن الثورة أصبحت بالنسبة للمواطن في منطقة صلاح الدين قطعة حياة ملموسة معاشة بين ظهرانيه، وهاجس ما انفك عن التحدي به والتغني بأمجاده، الأمر الذي يبرر لنا التعامل معها بمنهج المعايشة، وما يتصل ويتفرع على ذلك من مبدأ النقل المباشر لتدوين الظرف الحدثي[1]، ولعلي هنا أتذكر المفكر الألماني غوته في قوله: النظرية رمادية، أما شجرة الحياة، فهي دائماً خضراء.

تأسيساً على ما تقدم فإنني أذكر القارئ بالمنهج الذي قام عليه مذهب الإمام مالك، وهو منهج يعتبر عمل المدينة المنورة المصدر الأهم لتفسير النص الإسلامي والإحاطة به والإلمام بمدلوله ومعناه.

وهناك نقطة جانبية جديرة بالتنويه، وهي أنني اعتمدت مبدأ الاستقراء في تقصي الحدث وتصيد ظواهره وأحداثه وتسجيل مدلولاته مستنداً إلى كل ضالة ظفرت بها مهما كانت صغيرة وبسيطة، وهذا مبدأ من أقوم المناهج الحديثة، لأن الحدث قد يكون صغيراً في الحياة اليومية، لكنه مترعاً فياضاً في الدلالة التاريخية، ومع ذلك فالمأخذ على تطبيقي لهذا المنهج أنه من المفروض أن يتصدى لهذا البحث فريق علمي كامل.

هذا وإنني أعتذر إذا كان قد وقع مني بعض الأخطاء أو التقصير، وهنا أتمثل بقول الإمام الأعظم أبي حنيفة: رأينا هذا علم، فمن جاءنا بخير منه أخذناه.

---

[1] يعتبر الباحث من الطبقة التي تلي طبقة صانعي وموقدي أحداث الثورة، وقد سمع الحدث مباشرة من أفواه الصانعين له أي من أبيه وأمه وخاله وجاره وابن قريته.

وأؤكد أنه لا أحد كابن هذه المنطقة يستطيع ان يسجّل حياة ووقائع وأحداث وأيام هذه الثورة، ويعيش أخبارها بدقة وتفاصيل، لسبب بسيط هو أن هذه الثورة كانت التعبير الوجداني عن هذه الجماعة الاجتماعية، المسجّلة لنبضات قلبها ووجدانها وروحها، وعادة القرويين أن يعيشوا طيلة اليوم يتحدثون ويكررون ويمجدون حدثهم، وقد عشت بنفسي هذا اللون من الحياة، وسمعت دقائق الثورة وأيامها ومبتدأها وخبرها وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بها.

صحيح أنني لم أعش أيام الثورة لأنني من مواليد /1933/، لكنني تلقيت الأخبار عن الجيل الأول للثورة الذين خاضوا غمارها، وعاشوا لياليها وسجلوا ومضات شرفها وفحواها.

هذا وأشير إلى أن هذا البحث إذا كان قد قصر في ذكر ورواية مقتضى بعض الأخبار والأحداث، والجزئيات المكرورة، فالمعتقد أنه لم يعوزه منهج البحث وطريقه وأسلوبه، كما أنه لم يفتقر إلى التعامل اليقيني مع الجوهر، فالقضية إذن تدور بين حدي المظهر والجوهر، المظهر لا يستهوينا بريقه، والجوهر نغوص إلى أعماقه، وفي ذلك قسمنا بحثنا إلى قسمين أساسيين:

- القسم الأول: تمهيدي كان بمثابة مقدمة تؤطر للموضوع.

القسم الثاني: فقد تعامل مع الحدث ليعيش نبضاته ويتعامل مع دقات قلبه.

هكذا أقدم للقارئ صورة حية نابضة عن هذه الثورة وأسبابها ومراميها وعواملها ومبتغاها ومقتضى أمرها، علماً أنني لم أقف في هذه الدراسة موقف رجل الأخباري الذي يكتفي بالسرد، وتستهويه تطغي عليه متعة الأحاسيس، بل صرفت جهدي وكليتي في روعة الحقيقة وصوابيتها وشرفها ومنطقها خالصة موضوعية مجردة عن كل هوى وميل ونزق والله مسدد الخطى الموفق المستعان.

البحث التمهيدي

- إرهاصات الموضوع وممهداته -

ويتحرك هذا البحث التمهيدي ضمن عدة أطر ودوائر تمسك وتأخذ بحجز بعضها بعضاً، فتضيق شيئاً فشيئاً في طريقها إلى الموضوع، وهذه الأطر هي: حب الوطن من الإيمان "من وحي الوطن" –الحامل التاريخي للثورة.

- الفرع الأول -

- حب الوطن من الإيمان – "من وحي الوطن"

هل حب الوطن من العقيدة والإيمان؟ ما قيمة أي فكر أو كتابة إذا لم تنطلق من حب الوطن والإعتزاز به؟.. أليس حب الوطن الذي أنشأني وعهدني ورباني، جدير قيمي بهذه المقدمة لهذا الكتاب؟

فالدار "الوطن الصغير"، هو زهرة الحياة الدنيا لأنه يضم تحت أكنافه أبي وأمي و أقرباني و أصدقائي و جيراني والمربع الذي ولدت فيه، والشمس الذي لوحت وجهي، وفي النهاية هو الشعار الأخضر الذي ما ينفك يضج بالعواطف، ويموج بالأحاسيس التي تحيط بي، وتستهوي فؤادي وقلبي وعواطفي.

ماذا تعني الأرض إن لم تكن وطناً يتعلق به المواطنون، ويحبونه، ويدافعون عنه، ويعمرونه، ويتغنون بجماله، ويضيفون عليه خصائصهم، ويطبعونه بطابعهم؟

أرضي في مصاف القداسة، على كل حالاتها، محبوبة غالية، نجول في أراضي الناس وأوطان الآخرين، لكننا دوماً نحمل هذا الوهج في العيون، عند الحديث عن أرضنا ووطننا.

وهذا الاشتعال في الوجدان، عند التذكر والاسترجاع، لملاعب الطفولة وتاريخ الأجداد ووقار التراث، ودفء التراب، وروابط القرابة والود، وهذه الألفة التي لا حدود لها تجاه الحجر والشجر والبشر، وجماع هذه القيم يكون الوطن، وتكون الوطنية في هذا الانتماء.

قيل لأعرابي.. ما الغبطة؟.. قال " الكفاية مع لزوم الأوطان.

حب الوطن أمر يمليه الإيمان والقلب والعواطف، كما تمليه قواعد الأخلاق التي تهيب بي أن أقف بحب وإخلاص إلى جانب هذا الوطن الذي تكفلني بالرعاية والعطف، وأحاطني بالحب والحنان حتى أصبحت بشراً سوياً..

فالولاء والغيرة والوطنية هما أساس المواطنة، كما الصدق والإلتزام تجاه كل قضايا، الوطن، وهمومه وآماله، وهذا الوطن محبوب على كل حالاته وجوانبه وأوضاعه وتقلباته، ولا عجب إذن أن تتفتق الجوارح على حبه، وأن تضج الأحاسيس بالتغني بقيمه وأمجاده.

والوطن عند الطهطاوى هو عش الإنسان الذي فيه درج ومجمع أسرته ومقطع سرته، وهو البلد الذي أنشأته تربته وغذاؤه، وهواؤه ورباه ونسيمه.

ويقول أيضاً: إن الله سبحانه وتعالى إنما أعد الناس للتعاون على إصلاح وطنهم وأن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة، كأن الوطن منزل آبائهم وأمهاتهم وكل مرباهم، فليكن أيضاً محلاً للسعادة بينهم، فلا ينبغي أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة بآراء مختلفة.

ويقول قاسم أمين: أينما قرأت وفي أي مكان وجدت، لا أسمع إلا حب الوطن، الغيرة والوطنية، التفاني في خدمة الوطن، الجريدة والمدرسة الوطنية وحزب الوطن والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغل وتبيع تعالج وتربح لخدمة الوطن.

لقد صار حب الوطن ديناً، فمن اعتنقه ربح، ومن بعد عنه خسر، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه طعماً حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً.

ويقول حسين مروه: إن العالم بأوسع معناه إنما ينطلق من حدود الوطن، وإن الإنسان بأكثر ما يحتمل من شمول، إنما من أرض وطنه وفكر وطنه بأعظم ما فيه من طاقة التحليق.

قال أحد الشعراء في حب وطنه:

قالوا أتعشقه، وهذي حاله
يا حبذا وطني على حـــالاته
العيش حلو في سبيل رقيه
والموت أحلى في سبيل حياته

وقال شاعر آخر:
بلاد ألفناها على كل حالة
وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
وتستعذب الأرض التى لا هوا بها
ولا ماؤها عذب، ولكنها وطن

وقال الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف:
عندما يسألونك من أنت؟؟.. تستطيع أن تبرز وثيقة، أو جواز سفر يحتوي على المعلومات الأساس، أما إذا سألوا شعباً من أنت؟؟.. فإنه سيقدم علماءه، كتابه، موسيقييه، رجاله السياسيين، وقادته الفكريين، كوثائق.

وقال سعد زغلول: كونوا وطنيين، وعلموا أبناءكم الوطنية أساساً لأعمالكم، واقبلوا على علومكم فحصلوها، فإننا محتاجون للعلم والعلماء، لكن لا خير في العالم إذا لم يكن وطنياً.

وقال جواهر لآل نهرو: واجبنا نحن الزعماء أن نبث في الشعب روح الأمل والتفاؤل، فالشعوب الضعيفة المقهورة لا تقوى، ولن تنتصر ما بقيت يائسة متشائمة، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب الزعماء الأمثال على أنهم هم في المقدمة والطليعة جرأة وتضحية وإقداماً.

ويقول حسين مرصفي: فالروح وطن لكونه مسكن البدن، والدار والدرب والمدينة والقطر والأرض والعالم كلها أوطان لكونها مسكن، ولكل حق يجب أن تعرفه وتحرص على إدامة ملاحظته.

إذن، فالأساس إنغراس الإنسان في جماعة معينة و تعضيه فيها، بما يترتب على ذلك من نتائج أخصها الرد على المثيرات الإجتماعية والسياسية لهذه الجماعة بالعواطف والقيم والسلوك اليومي من خلال موقعيته داخل الحقل والبيئة الثقافية، وفي النهاية إنضوائه كمحارب تحت لواء شعاره الوطن.

إذا كان هذا هو الأساس، أفلا يمكن أن تكون داري ضبابية ترش الكآبة، وظلا فيه تخنق إبداعاتي، وتحول دون تفتح مواهبي وعواطفي وأفكاري، حيث أعامل كمقولة عامة، ليس أمامي إلا أن أذوب في قبضة الجماعة، وأستغرق نهائياً بشموليتها وسلطانها الكلي، دون أن تكون لي ماهيتي و فرادتي كإنسان له كرامته وإيمانه و عواطفه، يحدث ذلك عندما تجتث الجماعة الفرد من جذوره، أو تدفعه نحو التعطش الكلي بالقومية، أو ما يسمونه مبدأ الهيام بالجماعة.

وحقيقة الأمر، فليس بالضرورة أن تستغرق الجماعة فرادة الإنسان وإنسانيته، بل بالمقابل هي التي تحقق شروط تفتحه وانطلاقاته وإبداعاته.

ويؤكد الإمام محمد عبده هذا المفهوم السياسي للوطن حين يقول: لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً، وإن أوجه وحدته هو الوطن، امتناع الخلاف والنزاع فيه.

ويقدم الإمام تعريفاً كاملاً للوطن فيقول: الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقاً، فهو المسكن بمعنى استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها، أي اتخذوها مسكناً، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنتسب إليه، ويحفظ حبك فيه، ويعلم حقه عليك، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك.

أما أديب اسحق فلا يكتفي بذلك، بل يعطي للوطن مفهوماً أخلاقياً بتقريره أن حب الوطن فضيلة.

وهكذا فالفكر العربي أخذ يرتاد آفاقاً جديدة، ولم يعد يكتفي بالمفهوم الإقليمي الجغرافي الصرف المدلل بحتمية العنصر الجغرافي، أو بالوجدانيات الحدسية والطبيعية، والقول بالأمة الجغرافية والشخصية الجغرافية، بل أخذ هذا الفكر يتكلم بلغة العلوم الجغرافية الإنسانية المدللة بالعلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة.

على هذا الأساس تكلم انطوان سعادة عن ترجمة وحدة الوطن على صعيد علاقات الترابط الداخلية حتى يتكون الشرط الإنساني

الموضوعي لكيان الأمة، وهذه عنده هي دورة الحياة أو مركب أو متحد الحياة: المركب الاجتماعي الثقافي النفسي الاقتصادي، ذلك أن الإنسان حيوان اجتماعي، وهو لا محالة منخرط في العمل الجمعي، والغريزة الاجتماعية تتجلى في الميل إلى التعاون، والشعور بالحنان المتبادل، إنها حاجتنا إلى الخروج عن أنفسنا والدخول في علاقة مع الآخرين.

ومما لا شك فيه أنه لا بد من توافر قدر من التماثل والتقارب في الميول والآراء والعواطف للتعاون في حياة الجماعة و تحويلها إلى وحدة متميزة بمشروعات مشتركة وبمسؤولية مشتركة.

وآلية النظام هي سبيل الناس إلى التعاون، فهي ضمان توافق أفعال الأشخاص بعضهم مع بعض وائتلاف هذه الفعال من حيث تطلعها إلى أغراض الجماعة، وفضلاً عن ذلك، فالجماعة تحقق مزيداً من الفوز والنجوع بالتضامن، وإن مزيداً من الاندماج الاجتماعي هو أساس الاندماج السياسي والإيديولوجي، قاصدين بالتضامن تلك القيمة الاجتماعية التركيبية التي تضم إلى التنظيم مفهوم العدالة.

وهكذا يتضح بجلاء أن الجماعة لا تتفتح وتزدهر إلا بفاعلية التضامن بين أفرادها، وبالمقابل فالفرد لا يمكن أن يكون مواطناً أو إنساناً حقاً، إلا إذا كان ليس عضواً في دولة فقط، بل في دولة قومية مزودة بأخلاق وعادات خاصة لا تمتزج – كما قال روسو - بأخلاق الآخرين وعاداتهم.

إن الوعي القومي هو في الوقت نفسه وعي بالتماسك والمشاركة والتعبير عنه بإرادة عامة، وتوكيد الإرادة والاجتماع لدى كل فرد، وهكذا ينطبع، ويتأكد الجوهر الديمقراطي بفكرة القومية، وبالتالي ظهر المفهوم القومي السياسي للوطن، وهو الأمر الذي نجده في قول محمد عبده إن الوطن مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية، وهما حسيّان ظاهريان، والثالث إنه موضع النسبة التي يعلو بها الإنسان ويعتز، أو يسفل ويذل وهو معنوي محض.

ذلك أن مفهوم الشخص البشري أكبر من مفهوم المواطن، وإن كان يحتضنه ويتأصل عليه، باعتبار مفهوم المواطن مدنياً وسياسياً، يساوي بين جميع المواطنين في الدولة و أمام مؤسساتها، أياً تكون أصولهم، أما مفهوم الشخص البشري فينطوي على بعد روحي يتجاوز البعد الوطني والسياسي.

هذه باختصار توجهات دعاة القومية العفوية (الرومانتيكية)، تلك التي تعتمد على عفوية الأخلاق (القومية العفوية للأرض) وعلى عفوية الثقافة (القومية العفوية للثقافة)، أي على عطية الطبيعة، وقد اعتبرت معنى سياسياً.

هذا التصور ينظر إلى الدولة القومية كوردة تنبثق وحيدة من أرض الوطن، وهي لا تتحول إلى هذه الصفة كنتيجة لإرادة الحكام، بل تنشأ بالطريقة نفسها التي تسلكها اللغة والعادات والمعتقدات، أي بالعمل الهادئ لروح الشعب Volk guest.

وبمعنى أوضح فالجماعة السياسية ليست وليدة قرار سياسي، أو نتيجة صنع فني، بل هي نمو عضوي (مفهوم جغرافي وأخلاقي واجتماعي)، إنها من صنع الزمن، ومن عمل أحداث التاريخ، ووليدة استفتاء عام، حيث تبدو المشاركة القومية زمالة، ليس فقط بين الأحياء، بل بين أولئك الذين ليسوا على قيد الحياة.

فالمهوم الطبيعي للوطن – مقابل المفهوم الأنتربولوجي الثقافي - يرى الوطن ابن الحقل والنهر والجبل والشمس، وإن كان هذا المعنى الوطني يجب أن يكتسي بألوان جديدة زاهية عندما يمتد إلى العلاقات الأخرى (الكوسموبوليتيه) أو غيرها.

يقول فيخت: كل كوسموبوليتي يتحول بصوره الزاهية إلى وطني بسبب وجوده ضمن حدود الوطن، وكل إنسان يكون وسط وطنه أكثر من المواطنين قوة وفعالية، وهو بموجب ذلك أكثر مواطن فعال في العالم، لأن الهدف الأخير نقل الثقافة القومية وامتدادها إلى الجنس البشري.

لا يمكن للوطن أن يعيش دون حرية، ولا الحرية دون فضيلة، ولا الفضيلة دون المواطنين، وستحصلون على كل شيء إذا ما شكلتم مواطنين وبدون ذلك لن يكون لديكم سوى عبيد خبثاء.

إنه لقدسي وجميل أن يموت الإنسان من أجل الوطن، ولكن ذلك لن يبلغ مصداقيته إلا إذا تحول الوطن إلى حب لكل إنسان دون أن يكون هذا الوطن وطن الجوع والألم والدموع " ليس للبروليتاريا وطن" الوطن الصغير يجعل حب الوطن الأكبر أفضل، وليس صحيحاً أن الشعور الوطني والإنسانية فضيلتان متنافرتان، بل إن القاعدة الذهبية التي تعطيني الحق في حب بلادي، هذه القاعدة تلزمني احترام الآخرين في حب وطنهم وأرضهم.

أجل حب الوطن سنة طبيعية خالدة تخط حروفها على قلب كل إنسان، وهي لا تتعارض مع الوحدة في العقيدة، في الفكرة والوجدان، بل إن هذا النوسان بين حقيقتي كإيمان وحقيقتي في الدار، ثم التوفيق الدقيق بينهما، هو الذي يحقق أسباب ارتقائي ومعراجي.

فحب الوطن من الإيمان، والرسول – هو سيد البشرية - لم يفارق حب الوطن "مكة" قلبه، وقد كان وداعه لهذا الوطن حاراً يقطر أسى وحناناً وحباً، ويفيض بمشاعر الحسرة والألم على فراقه.

فها هو ينظر إلى وطنه مكة ليلة الهجرة عندما أخذت خطواته تبتعد عنها، فيخاطبها خطاب المحب الولهان العاشق، فيقول: اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إلي، ولولا المشركون من أهلك أخرجوني لما خرجت منك..

هذه مقدمة كان لا بد منها تبرر إقدامي على كتابة الموضوع، مع العلم أنني نصحت أن لا أتناول ذلك لوجود الأشواك والنتوءات فيه، وهذا ما يذكرنا بالجهاز المفاهيمي "النوابت" الذي ساد في حضارتنا[1]، ولأن قلمي يجب أن لا تربكه وتشغله المواضع الواهنة والواهمة.

وفي الحقيقة لقد ترددت قليلاً لكنني تغلبت على الإحجام، فأقدمت، يبرر قراري هذا حب الوطن من جهة وتصميماً مني على إلغاء عقلية مقولة النوابت من جهة أخرى، وطمسها من حضارتنا ومساهمة في بناء وطن العروبة على القاعدة الصلبة " العدل والمساواة".

---

[1] يقصد بالنوابت – لغة- الأعشاب البرية والأشواك التي تنبت بالحقل بين المزروعات.

لقد خلق الله تعالى في كل مخلوق جهاز مناعة (انتي بيوتيك)، فهل يتجرد سكان المنطقة من هذا الجهاز بعد أن اختبروا بصلابتهم وشيكمتهم في الدفاع عن الكرامة.

لقد كانت عين الرسول وعين أصحابه دائماً وأبداً على الوطن الذي أحبوه، فأخرجوا واقتلعوا منه، حتى لقد تمنوا على ربهم أن يجعل هذه الأرض السليبة قبلتهم، قال تعالى معبراً عن هذه العاطفة الجياشة: ((قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)) البقرة /144/.

هذا وننوه استطراداً بأن كثيراً من المهاجرين استوخم هواء المدينة باعتباره لم يوافق أمزجتهم، مما سبب لهم الأمراض حتى ضعفوا، وكانوا يصلون في قعود، كل ذلك – ومثله معه من أسباب - نهض سبباً لتحريك لواعج الشوق والحنين إلى الوطن الحبيب، ومن ثم فقد انطلقت ألسنتهم مفصحة عن هذا الشوق، وها هو بلال يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة : بواد وحولي اذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه بجنة : وهل يبدون لي شافة وطفيل.

ثم يقول: اللهم العن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

وروى عن عائشة أنها سألت في حضرة رسول الله رجلاً قدم من مكة إلى المدينة، فقالت له: كيف تركت مكة؟. فذكر من أوصافها الحسنة فاغرورقت عينا رسول الله (ص)، وقال: لا تشوقنا يا فلان، ودع القلوب تقر..

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يحبب إليهم المدينة : الله حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة وأشد، وبارك لنا في برّها وصاعها وصححها لنا، ثم انقل حماها إلى مهيعة الجحفة (بلدة في الصحراء).

وكما قلنا سابقاً فحب الوطن ناموس أبدي فطرت النفس البشرية عليه، وها هو النص القرآني يكشف عن هذا الناموس، قال تعالى: ((ولقد مكناكم في الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما

تشكرون))، أي جعلنا لكم فيها أوطاناً تتبوؤنها، وتتمكنوا من الراحة في الإقامة فيها.

من جماع ما تقدم يتضح واجبي المستكن تجاه الوطن الأول للقلب والروح ودقات الفؤاد ومسرى الدم وخلجات الفؤاد وأريج الكبرياء وزفير الدموع، ومهوى الحب.. وقبلة الله، لأن الوطن، مهد صباي ومستقر روح أبي وأمي الخالدين، فإليك إيها الوطن أهدي هذه السطور مفعمة بلواعج الشوق ونفحات الفؤاد راجياً أن أكون ابناً باراً وفياً للعهد والإيمان والرجاء.

ويبقى هنالك سؤال يجب طرحه: هل يجب أن يبنى حب الوطن على حساب الحقيقة؟ لا نعتقد ذلك، ولا نعتقد أن شريفاً لنفسه يقبل ذلك، وقد أشرنا سابقاً إلى أن حب الحقيقة، اصطدم – بالنسبة للرسول (ص) - مع حب الوطن، فآثر حب الحقيقة، ونحن لن يكون رائدنا إلا حب الرسول، والله، الموفق المستعان.

- الفرع الثاني -

الحامل التاريخي للثورة - تمهيد

هذه الثورة -كما هو معهود - اندلعت في قضاء صهيون، المسمى والمنسوب ماضياً إلى قلعة صهيون، وحالياً شرفاً واستحقاقاً – إلى قلعة صلاح الدين.

وكان هذا القضاء يمتد من قضاء جسر الشغور حتى قضاء اللاذقية، ولا نغالي أو نبالغ في قولنا إن هذا القضاء، مثل الكثير من المناطق في سوريا – كان مطحوناً بثالوث الجهل والمرض والتخلف[1].

ولن نعتمد في قولنا هذا القياسات البرهانية والعقلية والأسانيد المنطقية، ولكننا نذكر القارئ أن عدد سكان مدينة اللاذقية كان لا يناهز ثلاثة وثلاثين ألفاً حسب كتاب التاريخ الذي كنا ندرس فيه عام /1947/ في الصف السابع (الثاني الثانوي) في ثانوية البنين في اللاذقية.

تلك المعطيات دفعتني إلى أن أقدر عدد سكان منطقة صلاح الدين (صهيون سابقاً) بعشرة آلاف نسمة كحد أقصى، وهذا العدد الإجمالي الضئيل نسبياً هو وقود الثورة وفاعلها ومحركها وصانع أحداثها، وعلى ضآلة هذا العدد، فقد قبل التحدي والمناجزة مع دولة عاتية خرجت مزهوة بانتصارها في الحرب العالمية الأولى وعاشت وزهت بهذه الروح، قانعة الأمور بهذا القياس من العتو والخيلاء وليّ سواعد الشعوب كشعبنا في سوريا.

ونمضي في الحديث عن إطار الثورة لنسرد وقائع حدثت معي وشاهدتها بأم عيني، ولكنني قبل هذا السرد أذكر القارئ بالبيت الشعري لشاعرنا المجيد أبي تمام الطائي، ففي هذا البيت يتجلى منهجنا المفضل في استقاء مادة الثورة ومعلوماتها، قال أبو تمام:

---

[1] يذكر د. علي خليل في كتابه السالف الذكر ص256 أن السكان في قضاء جبلة رفضوا وجود أية مراكز حكومية ليظلوا في منأى عن الأنظمة الجائرة المتعلقة بالضرائب وأخذ العسكر والتقسيمات الإدارية كانت اسمية ورؤساء العشائر هم الذين يتولون الإدارة.

والعلم في شهب الأرماح ساطعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

ما هي هذه الوقائع التي شاهدتها بأم عيني؟

عام /1947/ أتيح لي أن أرافق والدي المرحوم خليل زريق في جولته لتحصيل الديون من المدينين الذين اشتروا البضائع من حانوته، وكانت العادة أن يتجول الدائن كل سنة وقت الموسم لهذه الغاية.

لقد كان تنقلنا طويلاً امتد من قرية الخوارات "قرب صلنفة" حتى قريتنا ولقد لاحظت في هذا العدد الجم من القرى، أنه لم يكن هنالك شخص واحد يتمكن من القراءة والكتابة، وعندما طلب مني والدي أن أسجل له بعض المعلومات استغرب الناس هذا الحدث، أي تمكن فتى صغير من الكتابة، والقرية الوحيدة التي عهدت بها بعض أشجار التين، هي قرية بارودة، أما بقية القرى فقد كانت خالية من جميع الأشجار المثمرة.

ومررنا بإحدى القرى وكان يعبرها نهر، فنزعت ثيابي لأسبح فيه، لكن أهل القرية نصحوني بالامتناع عن ذلك لأن النهر مسكون بالجان.

وعلى ما أعتقد فجميع قرى جبل الأكراد لم يكن بها مدرسة أو كتاب أو شيخ معلم حتى أن نائبها المرحوم نوري الحجي كان أمياً لا يجيد الكتابة.

هذا ملمح بسيط عن المنطقة، فهل كانت منطقة الثورة تحمل هذه المعاني والخصائص؟؟

وما هي مقومات مجتمع الثورة وإمكاناته، وهل كانت تعيش الظروف نفسها التي حملت هذه المهمة التاريخية [1].

---

[1] لاستكمال الصورة الحضارية عن بابنا (وضمنها الجنكيل) نورد ما أشار اليه الدكتور علي خليل (كتابه ص 256) من أن السكان في قضاء جبلة والحفة رفضوا وجود أية مراكز حكومية ليكونوا بمنأى عن الأنظمة الضرائبية الجائرة بالإضافة إلى أخذ العسكر، والتقسيمات الإدارية كانت أسمية ورؤساء العشائر هم الذين يتولون الإدارة.

المطلب الأول
الحامل الجغرافي

هذا الحامل يلعب دوراً كبيراً في مجرى حياة الثورة وأحداثها، وفي تحديد وجهات القتال وعناصره كاستعمال أسلوب المناورة ومظاهر الكر والفر، وغير ذلك من فنون القتال.

وهذا ما لمسناه في ثورة الجزائر فقد ملأت الدنيا والأنفس والآفاق تأييداً ودعماً، ومع ذلك فقرارها المكين استكن في الجبل، والأمر نفسه نجده في حرب فيتنام التي اتخذت الغابات جُنّة وستاراً للانقضاض والمراوغة والتخفي.

ونظرة بسيطة عجلى فاحصة على منطقة صلاح الدين ترينا أن مساحتها محدودة ضيقة لا يتجاوز قطرها /10/ كم، وفضلاً عن ذلك فالقرى المحدودة فيها مشرشرة متخلخلة غير جبلية أو مرتفعة لا يتعدى ارتفاعها اربعمائة متر[1]، ولا تعطي أية ميزة قتالية لحرب العصابات.

وهذا يفسر لنا هجرة أبناء صلاح الدين من ديارهم، ومغادرتها من أجل استئناف القتال بوسائل أخرى أجدى وأقوم للحركة وللإنقضاض.

لقد قدر رجال الثورة أنه من المتعذر عليهم مقاومة سلطة عاتية خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى، لكن شهامتهم رفضت وأبت الاستسلام والذل، فكانت فكرة الطباق بالهجرة يحدوها ويوجهها استمرار القتال بوسائل أخرى.

المطلب الثاني

العامل البشري - الثقافي - العمراني - بوصفه حاملاً للثورة

سئل لينين عن شروط انفجار الثورة فرد الأمر إلى ثلاثة شروط:

1 - وجود الخلل الكبير في المجتمع
2 - عدم قدرة الحكام على الاستمرار
3 - رغبة الشعب في التغيير مع توتر الإرادة في ذلك

---

[1] د.علي خليل: اللاذقية أضاف أنها تقع في الشمال الشرقي في بلدة اللاذقية، وتبعد عنها حوالى 37 كم، وتتوضع قرية بابنا والجنكيل على مساحة قدرها 500 دونماً.

ويلاحظ أن الشرط الثالث هو الشرارة التي تفجر البرميل، وبدون ذلك فنحن حيال عطالة كاملة.

وسنناقش هذه المسألة بالتفصيل لكننا سنعالج مسألة أولية هي، لماذا حامل الثورة مجتمع لا جماعة؟؟ لقد طرحنا هذه المقولة لرفع تلك التهمة الضمنية التي مؤداها أن منطقة الثورة كانت على نصيب وقدر متيقن من الانغلاق والتعصب، الأمر الذي يمكن نعته بأنه جماعة مغلقة منكمشة على ذاتها.

وحقيقة الأمر، فمنطقة صلاح الدين قمينة بالوصف "مجتمع" لا جماعة إذ لم تكن جماعة قائمة على ذاتها مصمتة كقطعة الصلصال، وإنما كانت مجتمعاً وظيفياً غير عضوي، متفتح ديناميكي يتفاعل أخذاً وعطاء، وباختصار مجتمع قطع وتجاوز الطور العشائري.

لنأخذ (الإطار العائلي) على سبيل المثال، فليس في هذا المجتمع الأسرة الكبيرة في تعدادها المسمرة في الأرض منذ عهد صلاح الدين، وما يوضحه المثال لا يوضحه المقال.

فآل زريق مثلاً أصلهم من قرية أرض الوطى في جبل الأكراد، لكن الجد الأول الكبير للعائلة تزوج امرأة من بيت البدري في بابنا وبقي مع زوجته وأخذ الهوية من هذا المجتمع الجديد.

أجل فقرية (بابنا) قامت مركزاً للقضاء منذ الحضارات السامية، ولو كانت متعصبة مغلقة لأظهرت لنا العائلات الكبيرة.

وهذا المجتمع البلدي، كان مستقراً للدركي والموظف والنازح والصنائعي والحداد يتعامل ويتفاعل معه على أساس قيامه بوظيفة اجتماعية لا عضوية.

وهذا المجتمع لم يكن قائماً على الارتباط الكلي بالأرض، بل هو مجتمع شبه بلدي ولديه مزارعين بالأجرة، أضف إلى ذلك هنالك الحداد والذي يدير حانوتاً أو طاحونة نارية، وهنالك المبيض وأستاذ المدرسة والمسحراتي وإمام الجامع والشيخ الذي يعلم الأولاد والداية المولدة[1] الخ....

---

[1] يذكر الدكتور علي خليل في كتابه (اللاذقية ص 178) أن بابنا كانت تحتوي على ثمانين دكاناً منها 5 دكاكين للإسكافيين أي صناعة الأحذية، وقد برع في هذه المهنة أبو علي عابدين الملقب بالجوجو وأحمد علي طه ومحمد زبيده وأسعد ديب كما كان هنالك ثلاثة

فعلاقة الإنتاج إذن كانت متطورة وتسمح بإنتاج علاقات مرنة غير قائمة على التشنج، كل ذلك بصورة نسبية ومتطورة مقارنة مع الجوار.

والخلاصة فمجتمع صهيون، مجتمع حركي ديناميكي فياض كثير التفاعل والتأثير والتأثر المتبادل، وقد تبوأ هذا المركز من موقعه الحضاري كمركز للقضاء، ومن موقعه العسكري (قلعة صهيون)، حتى أن صهيون كانت على عهد سنقر (كما سنرى) عاصمة لمنطقة كبيرة في سوريا.

وبإلقاء نظرة عجلى فاحصة على أسماء القرى في قضاء الحفة نلمح ظاهرة تسترعي الإنتباه، وهي أنه كلما أوغلنا عمقاً في الداخل، وجدنا أسماء القرى تكتسي سمة عربية يصدق ذلك على منطقة الأكراد، وعلى القرى التي يقطنها الأخوة العلويون، وتفسيرنا لذلك هو أن التأثير الصليبي والروماني واليوناني لم يتعد دور الحامية العسكرية فيه، ولم يكن بصره يرنو إلى الإستقرار الكامل في المناطق الداخلية.

ونقطة استطرادية ثانية وهي أن سكان منطقة صلاح الدين كانوا يرتاحون نسبياً إلى العهد العثماني لا لأنهم عملاء أو وكلاء بل لأنهم أنداد وجدوا في العثمانيين شركاء في الدفاع عن الإسلام، وإنني كنت استيقظ صباحاً على صوت والدي أثناء صلاة الصبح يقرأ بعد الصلاة البردة للبوصيري ثم يختم ذلك بالدعاء للخليفة العثماني " طبعاً هذا الشعور تغير بعد موقف أتاتورك التغريبي"، ومع الإشارة إلى أن الأتراك كانوا على حرب مع الفرنسيين في كيليكيا كما أنهم لم ينفكوا عن مساعدة ثورة هنانو وثورة صلاح الدين كما سنرى.

دكاكين قصابة أصحابها أسعد عثمان وأبو حمدو حسن وأسعد حاج محمد وثلاثة دكاكين حلاقة (مزين) وأصحابها عثمان غبيش وابراهيم شاكوش وعزيز صالحة ودكان حدادة لآل صالح تصنع فؤوس و رفوش ومناجل وسكاكين وسكك صمد الفلاحة، ودكان حياكة فيها نول لصاحبها محمد رشيد شاكوش ودكان للتبييض صاحبه عبد العزيز عبد القادر مبيض ودكان لتبييض الأوعية النحاسية وكان هناك ثلاثة دكاكين للنجارة واحد لمصطفى الشماط مختص بصنع الصمد للفلاحة والثاني لأسعد صالحة الذي اختص بصناعة الأبواب للبيوت والثالث لجودت أمين والباقي للسماتة والأقمشة.

لقد فهم الغزاة الفرنسيون أن هذه الروح التي نبتت في بابنا سامية في أصلها عربية في فصلها عربية في لغتها عربية في فؤادها وهواها ومناها[1]،وبذلك فهي من الصلابة والوضوح والحسم، الأمر الذي يصعب التفاهم مع شخص واحد من سكانها إذا كان الأمر مخالفاً لنهج العروبة والإسلام، وقد بقي الاستعمار الفرنسي ينيخ بكلكله على صدر المنطقة مدة ربع قرن دون أن يرسي قواعده فيها.

إذاً هذا هو المبرر الأبعد العميق لضرب واقتلاع هذه الركيزة الحضارية العربية الإسلامية وطمسها من لوح الوجود، وكان باستطاعة الفرنسيين أن يراوغوا قليلاً لا أن يلجؤوا إلى هذا الأسلوب القاسي، لكنهم تصرفوا باعتبارهم أبناء الجنرال غورو يحملون روحه وإيمانه تجاه المنطقة وانتقامه منها.

وإذا كان الجنرال اللمبي خاطب البطل صلاح الدين قائلاً لقد عدنا يا صلاح الدين، فالفرنسيون جاؤوا بوسيلة أخرى هي محق المنطقة وطمس رجولتها وإيمانها بوطنها وحضارتها.

لقد أدرك أبناء المنطقة بضميرهم الجمعي أبعاد الاستعمار الفرنسي منذ أن وطأت أقدامه أراضي الوطن، لذلك رأينا ثلاثة أبطال تتحرك فيهم روح الشهامة والمروءة العربية ويهاجمون الفرنسيين في ثكناتهم في اللاذقية الواقعة في موقع الزقزقانية عند مدخل المدينة (وكانت هذه الثكنات تسمى وطى الطيارات)، كل ذلك قبل أن تدخل الحملة الفرنسية وتحتل منطقة صلاح الدين وعاصمتها بابنا والجنكيل.

ولا عجب فعندما سيطر الفرنسيون على دار الحكومة في بابنا والجنكيل أخذوا يلاحقون الأبطال الثلاثة الذين هاجموهم في موقع اللاذقية، وكان في عداد هؤلاء الأبطال شخص اسمه حسن طه من بابنا.

وينتقل بنا الاستطراد إلى نقطة جديدة هي أنني التقيت بصديق لي في أحد شوارع اللاذقية، وقد ذكرت للصديق بأنني أتولى

---

[1] يؤكد الدكتور علي خليل في كتابه ص185 أن بعض سكان بابنا من أصول عربية استوطنت قبل وبعد الفتح العربي الإسلامي.

دراسة ثورة منطقة صلاح الدين، هنا قاطعني الشخص الذي كان مع الصديق ليقول: لقد قرأ في أحد كتب التاريخ أن الذي استولى على قلعة صهيون من الصليبيين هو ابن صلاح الدين، وقد اشترك معه في القتال أبناء المنطقة، وفيهم – على حد قول الرواي - قال الشاعر:

تقضي البطولة أن نمد جسومنا جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا

هذه المقدمة الطويلة نسبياً تسمح لنا أن نقدمها وصفاً دقيقاً للمنطقة، فضلاً عن أنها تؤكد أن بلدة بابنا بنتها سواعد الساميين، ثم كان الفتح العربي الإسلامي تعبيراً عن التوحد مع أخيه السامي، حيث وجد الساميون بهذا الفتح بلورة لروحهم وثقافتهم وبعثاً لمنبتهم.

إذا علمنا كل ذلك استطعنا تعليل حدث فتح قلعة صهيون من قبل جنود البطل صلاح الدين، ثم انضمام سكان المنطقة إلى الفاتحين دفاعاً عن شرفهم ضد المغتصب الصليبي، لا بل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك للقول إن سكان منطقة صلاح الدين احتفظوا بهذا الدور الطبيعي كجُبَّة طبيعية تحميهم من كل اعتداء.

أجل لقد ذهب محب الدين الخطيب[1] - وهو أحد أعلام النهضة الذين تأثروا بمحمد عبده - إلى أن حركة التوحيد الإسلامي الاجتماعي والسياسي تمثلت في إعادة الوحدة القومية للشعوب السامية، حيث أصبحت اللغة العربية لغة جميع الساميين، كما كانت اللغة السامية الأولى لغتهم الوحيدة قبل التشتت والانقسام، وكذلك في إعادة الوحدة إلى القبائل العربية وإلى اللغة العربية بالذات التي كانت لهجاتها مظهراً من مظاهر التفرقة والضعف القومي في الأمة العربية.

وهذا هو عين تحليل الأستاذ عثمان السعدي لما حدث في المغرب العربي بالنسبة للقبائل العربية "الأمازيغ" التي سرعان ما رحبت بالفتح العربي كما أنها قاومت عقيدة الحكم الروماني[2].

---

[1] محب الدين الخطيب: سلطان اللغة العربية، مقالة منشورة في مجلة الزهراء، مجلد /2/ ص 149.

[2] عثمان السعدي: الأمازيغ.

هذه هي روح المنطقة التي شبت وترعرعت على حب العروبة والإسلام والتضحية من أجلها لدرجة أن كثيراً من مجاهدي هذه المنطقة اندفعوا إلى بلاد البلقان جهاداً في سبيل الله، هذا فضلاً عن أن أوروبا اصطدمت بصخرة العالم العربي والإسلامي في أفريقيا عامة وفي مقاومة مملكة المغول الإسلامية في الهند وفي إيران "الصفويين"، ثم في تركيا على يد العثمانيين وأخيراً في الوطن العربي.

فهل إن دخول الفرنسيين إلى سوريا كان يتحرك معبراً عن هذه الروح، وهل فهم سكان المنطقة إلا على هذا الأساس، وهل كان هنالك مسوغ لاحتلال سوريا من قبل الاستعمار الفرنسي؟؟

بقيت نقطة أساسية جديرة بالتنويه ألا وهي:

أليس هنالك تناقض بين وصفنا منطقة صلاح الدين بالامتلاء والنمو ووصفنا لها بالحرمان والفاقة؟

لا نعتقد ذلك لأن حركة الحياة كانت محصورة في مركز القضاء منذ عهد بعيد، والعكس بالنسبة لقرى القضاء التي لم تكن تهم المستعمر منذ العهد اليوناني.

- المطلب الثالث -

- التراكم العمراني الحضاري العربي الإسلامي في المنطقة "بابنا والجنكيل انموذجاً" -

لقد كانت بابنا والجنكيل مركزاً للقضاء عمرانياً وحضارياً وقد نقل هذا المركز - عقوبة - إلى الحفة بسبب ما لاقى من شراسة المقاومة.

ولا يعني قولنا هذا إن سكان الحفة لم يقاوموا المستعمر، أو كانوا أقل شراسة من غيرهم في المقاومة، وكل ما يعنيه الأمر أن الظروف المادية للمقاومة كانت متوفرة في بابنا والجنكيل أكثر من الحفة، ويصدق ذلك على الظرف المكاني والجغرافي باعتبار بابنا والجنكيل أكثر توغلاً جغرافياً في أعماق المنطقة.

وإذا قلنا إن بابنا والجنكيل أكثر توغلاً فهي أكثر فاعلية في الدور الذي نشأت من أجله وهو الدور الأمني، هذا فضلاً عن أنها قريبة من طريق حلب اللاذقية، ومع ذلك فقد عبثت فرنسا بذلك.

لقد تسللت إلينا – ونحن الجيل الثاني بعد الثورة - هذه الروح، وأذكر أنه عندما كنا صبية نسرح ونرتع ونلعب، كنا نصعد على أعالي خشبات الهاتف لنكسر الزجاج معتقدين أن ذلك موجه ضد الفرنسيين، كما أذكر أننا استيقظنا يوماً على وجود أوتاد في قرية الجنكيل، ولقد تساءل الناس ما الغاية؟ فقيل هنالك تفكير بجعل القرية مركز اصطياف، فما كان من سكان القرية إلا أن اقتلعوا الأوتاد كمظهر من مظاهر المقاومة والرفض لرموز المستعمر، وطبعاً فإنني أنفي حالياً واتحفظ على هذا الموقف.

وفي جميع الأحوال فإن مركز بابنا والجنكيل بالإضافة إلى قرى منطقة صلاح الدين شهد نسبياً النمو الملحوظ في روابط العمران وأدوات الإنتاج وعلاقاته، بحيث يمكن القول إن منطقة صلاح الدين أخذت بالتراكم الحضاري (العمراني بالمفهوم الخلدوني)[1] لتتحول إلى مجتمع بلدي وليس مجمعاً زراعياً، وما يوضحه المثال لا يوضحه المقال:

كان يوجد في مركز بابنا والجنكيل طاحونتان لطحن الحبوب، إحداهما على المازوت موجودة في بابنا، وهي ملك المرحوم وجيه علي الصالح المتميز في رصانته وحكمته، أما طاحونة الماء فقد كانت مقامة في قرية الجنكيل، وقد وجدت أنقاضها مركبة على النهر –المنطرة المكان الذي كنا نسبح به في القرية، وهذا النهر ساحر جذاب وفتنة للناظرين بكبر فتحته وعمق مجراه وأعشاش الطيور وعقبان الجو والمنظر الرائع الناشئ عن التقاء نهرين في نقطة واحدة لتشكل وادياً عميق الانحدار خلاب المناظر والآثار.[2]

- كان في قرية بابنا حدادون حاذقون يؤمهم سكان القرى المجاورة، ويقوم بمختلف أعمال ومتطلبات هذه المهنة، وكانت هذه المهنة تمارس من قبل بيت علي الصالح.

---

[1] نقصد بالعمران هنا المفهوم (الخلدوني) الذي وصفه المفكر ابن خلدون والذي يقصد به مطلق التقدم في الاقتصاد والثقافة والاجتماع الخ...

[2] يذكرنا موقع المنطرة بآل ديب في الجنكيل وقد اشتهر منهم المجاهد محمد حسن علي ديب الذي ولد في الجنكيل سنة 1896 وقد رافق الشهيد حسن سعدية في معركة بخعة غازي في منطقة البسيط واستشهد سنة 1920 بعد حصار دام أربعة أيام وأبلى في ميدان الجهاد أحسن بلاء.

كان في القريتين عدة أفران لتأمين الخبز وكان يوجد بالإضافة إلى ذلك عدة تنانير عامة، يؤمها الزبائن من النسوة فقط، بل يمكن القول أن التنور كان الفرن الرئيسي للقرية[1].

- كان هناك داية لتوليد النساء، وهي من سكان بابنا، وكانت متدينة ومحترمة من قبل كافة المواطنين خاصة وأنها لم تكن تتقاضى أجوراً على عملها، وإن كان أصحاب العلاقة يتحفونها عند الولادة ببعض الهدايا.

- كان هنالك عدداً كبيراً من الحوانيت.

إذا علمنا أن مركز بابنا والجنكيل كان مركز القضاء أدركنا أن النفوس كانت تهوي إليهم من منطقة جبل دريوس لشراء حاجاتهم من السلع.

كان في مركز بابنا والجنكيل مسحراتي يوقظ الناس على السحور في شهر رمضان المبارك، وكان يردد ترانيم جذابة وساحرة مثل قوله: ((يا نايم وحد الدايم))، وكانت أداته في إيقاظ النائمين طبل كبير معلق على عنقه، وقد استيقظت في أحد "السحور" خصيصاً لأراه، وكنت أتصور أنه ليس على هيئة إنسان بسبب هذا الدور الذي يؤديه والترانيم التي يطلقها.

كان في القريتين مدرسة ذات بناء جيد حديث، يتألف من ست غرف، ولقد شيدت هذه المدرسة في العهد العثماني[2] عندما وضع أحد السلاطين خطة شاملة لتحديث الدولة، وقد تخرج من هذه المدرسة العدد الكثير من الطلاب الذين لعبوا دوراً هاماً في التاريخ العربي الحديث، أمثال: الشيخ يوسف ياسين في السعودية والمرحوم محمد الشريقي الذي شغل وزيراً في الأردن وابن عبد الجليل والفهامة الشاعر والمفكر الكبير المرحوم محمود زريق الذي ضربت به الأمثال ذكاء، وحكمة، وحلماً وتبصراً وبصيرة.[3]

---

[1] د. علي خليل (اللاذقية في مطلع القرن العشرين ص 234).

[2] د. علي خليل: المرجع السابق ص 177 و 240 وقد وصف هذه المدرسة بأنها بنيت قرب دار الحكومة من الحجر النحيت على النسق الشامي القديم، وعلى الباب لوحة كتب عليها تاريخ بنائها وعبارة البسملة وكلمة صهيون فوقه، وكان هنالك مدرسة في قرية الحفة والثانية في سلمى.

[3] واستطراداً فالشاعر الحكيم محمود زريق تأبت وأنفت روحه ووجدانه قبول الاستعمار الفرنسي البغيض، مما اضطره إلى اللجوء سياسياً إلى تركيا تخلصاً من الإضطهاد، وبقي في المنفى عدة سنوات، ثم جاء بعد العفو عنه.

وكانت الحياة الثقافية مواره مترعة في منطقة صلاح الدين فقد كان هنالك طبقة مثقفة انبثقت عن ظروف المنطقة باعتبارها مركزاً للحكومة منذ زمن بعيد، وما يترتب على ذلك من وجود ديوان للحكومة[1] لتصريف شؤون المنطقة، ووجود الكتبة والديوانيين والموظفين، اذ – على سبيل المثال - كان هنالك شخص من آل المفتي في اللاذقية أسمه جمال مفتي، وكان صديقاً حميماً لوالدي، وكان معلم مدرسة ابتدائي في مدينة اللاذقية، وقد أمدني بمعلومات وافرة عن الثورة لا تتوفر إلا عند من كان موظفاً عند الحكومة آنذاك، وهو شقيق المرحوم لؤي مفتي.

- كان يوجد في قرية الجنكيل رجل مسن ضرير أسمه الشيخ علي فخر الدين الشاكوش، وكان المذكور على قدر من الذكاء لا يقل عن فيلسوف الأدباء أبي العلاء المعري، وكان يعطي حلاً لأعوص مسألة حسابية تطرح عليه، وكانت تأتيه الوفود العلمية من اللاذقية لهذه الغاية.

وكان يوجد في قرية الجنكيل شخص أسمه صالح الشماط – وهو صاحب حانوت - وكان المذكور يعطي المعنى لأغرب الكلمات في اللغة العربية.

وإن تصفحاً سريعاً للكتب الثقافية العامة في الحقل التداولي في المنطقة تشير إلى تلك القاعدة الثقافية العربية الإسلامية العريضة، كما تفسر لنا طبيعة هذا المجتمع، ولماذا ثار على فرنسا.؟

واستطراداً فكان هنالك عدة أخباريين ورواة للتاريخ العربي الإسلامي، يحدثونك عن كل صغيرة وكبيرة فيه، وكان المنتشر الذائع هو قراءة الروايات الآتية: عنترة بن شداد – ذات الهمة – الشاطر حسن – الظاهر بيبرس – الزير سالم – قصة بني هلال – ألف ليلة وليلة.

وأذكر أنه كان لدينا سيرة عنترة المؤلفة من تسعة أجزاء وكان المواطنون يأتون من كل فج عميق ليستعيروا هذه السيرة.

---

[1] د. علي خليل المرجع السابق ص 177، وقد أشار المذكور إلى أن دار الحكومة كانت أيضاً مقراً وطرازها يشبه المدرسة الابتدائية وبقربها كانت الثكنة العسكرية (القشلة)، وهي الآن ملك ابو حسن اصلان.

لقد سئل المرحوم ساطع الحصري عن دور الثقافة فأجاب: أعطوني ثقافة أعطكم الوحدة العربية، وكانت هنالك قبيلة إفريقية تعتقد أن من يأكل من أموال رئيس القبيلة يموت، وصدف أن شرع أحد رجال القبيلة يأكل من أموال الرئيس، فسرعان ما حدث به اضطراب صحي شديد شارف فيه على الموت لولا أن قيل له من قبل أحد رجال الدين أن هذه الأموال المسروقة ليست للرئيس.

وهكذا كان المواطن في منطقة صلاح الدين يدرك أن أي تعامل مهما كان تافهاً مع الفرنسي معناه إغضاب الله تعالى، والخلود في النار وبئس القرار، مثله في ذلك مثل الإفريقي المعتدي على أموال الرئيس.

ولعل منهج المقارنة من أخصب المناهج العلمية، حيث تجري المقارنة بين الشيء والشيء الآخر استناداً إلى هذا المنهج، فإن إجراء اية مقارنة بسيطة للحياة الثقافية في صهيون "منطقة صلاح الدين" وبين الحياة الثقافية في جبل دريوس أو منطقة الأكراد التي مقرها سلمى[1]، تطلعنا على البون الشاسع في جملة المقارنة بها، وأؤكد أن منطقة الأكراد لم يكن فيها أية مدرسة، كما أذكر أن المرحوم نوري الحجي كان أمياً مع أنه انتخب مراراً لمجلس الشعب.

وبيان ذلك أن شرايين الدولة لم يكن ليمتد تاريخياً أبعد من منطقة صهيون[2]، كما يتضح من تسميات القرى، ونحن لا نجد هذا التأثير اليوناني أو الروماني أو الصليبي في أعماق المنطقة، وهذا ما تفصح عنه أسماء القرى في الأكراد ومنطقة دريوس، إذ تغلب على هاتين المنطقتين الأسماء العربية.

وغالباً ما كانت الحكومة المركزية تعتمد على منطقة صلاح الدين عند الضرورات الأمنية، إذا كان من المتعذر عليها التعويل

---

[1] أذكر أن سلمى لم يكن بها مخفر للدرك.

[2] يتعرض الدكتور علي خليل (كتابه ص 175) إلى جوامع ومساجد قرية بابنا فيذكر أن هنالك جامعين أحدهما (أبعاده حوالى 14x14 م)، وله أربع قباب كبيرة ومرتفعة ومئذنة ارتفاعها 8م، وقد بني سنة 1902م، كما هو مؤرخ في لوحة موجودة في أعلى مدخله، حيث بناه القائم مقام مصطفى نشأت بك، والآخر في قرية الجنكيل وقد بني عام 1894، فضلاً عن ذلك يوجد في قرية الجنكيل مسجدان هما مسجد الخرنوبة ومسجد الشاكوش.

على أجهزتها الحكومية، ولعل هذا هو السر الكامن وراء امتلاء وغنى منطقة صلاح الدين مادياً ومعنوياً، فقد كان سكانها يملكون الأراضي الممتدة من جسر الشغور حتى قرية غمام في منطقة التركمان مروراً بقرية بيت زعرور قرب كفرية (وهم من الصهاونة) وامتداداً حتى منطقة شير الجبصين قرب اللاذقية، بما في ذلك قرية السامية ومنجيلا على طريق اللاذقية ـ الحفة، ثم قرية الصمنديل التي لا تزال ملكاً لسكان قرية الجنكيل "بيت اصلان".

هذا هو مجمل الوضع الأنتربولوجي والحال الثقافية الاجتماعية للمنطقة سقناه بتعرجاته وتضاعيفه لندلل بنمو المنطقة وامتلائها عمرانياً[1]، حيث أخذ هذا الامتلاء والنمو بالتراكم منذ حملة البطل صلاح الدين صعوداً حتى الحكم العثماني، وهكذا رأينا مركز "بكاس" يتكرر في الأدبيات السياسية العثمانية العربية تدليلاً بنمو هذا المركز حضارياً والدور الذي لعبه سياسياً[2]، لقد جعلت هذه الظروف التاريخية المتاحة ابن المنطقة صلاح الدين عارماً مدججاً بالثقة والكبرياء وعلو النفس التي قد تصل في بعض الأحيان إلى درجة الشموخ، وأحياناً أخرى لدرجة الصلف.

أجل كثيراً ما تضع التقاليد الاجتماعية قيماً تندريه فكاهية مزاجية "هزلية غير استفزازية"، تحاورية بين المدن المجاورة كالتندر بين الحموي والحمصي، أو بين الدمشقي والحلبي الخ...والتحاور والتندر عادة يحدث بين المتعادلين، وهذا يفسر لنا المزاح الفكاهي بين سكان اللاذقية والصهاونة[3]، وهو تندر لعب فيه الاحترام والحب والتقدير دوراً هاماً، وإن دل فإنما يدل على أن الصهاونة لم يقبلوا على أنفسهم إلا أن يكونوا على مستوى أهل اللاذقية.

تأسيساً على ما ذكرنا فإننا نسمع ـكمثل شائع على كل لسان في محافظة اللاذقية ـ أنه إذا تصارع الصهيوني مع شخص ثم

---

[1] د. علي خليل: المرجع السابق ص250 وقد أشار إلى وجود عدة طواحين في الحفة زنقوفة، شتيغو، بابنا، كما كان هنالك طواحين تعمل بوساطة الدواب وتسمى باضوس.

[2] جيرائيل سعادة: ترجمة سلمان حرفوش طبعة 987، طبعة 995 ص249 وما بعدها.

[3] يرفض بن المنطقة أن ينادي بأنه من الصهاينة، بل من الصهاونة علواً واستكباراً واشمئزازاً من الكيان اليهودي الإسرائيلي.

غُلب، فإنه يسارع إلى مد ساقه ويضمها فوق جسم الغالب، ثم يرفع عقيرته قائلاً للغالب ها أنذا غلبتك تعبيراً عن الموقف اللقاحي الذي لا يقبل الهزيمة.

ومن النكت التي تروى عن الصهاونة أن رجلاً من بيت البيطار من قرية شيرقاق "وهؤلاء هم أهل المرحوم الخالد عمر البيطار ويتميزون بنبلهم وشموخهم وكبريائهم وعزتهم ونقاء سريرتهم" قبض على ابن آوى الذي كان يتردد ليأكل من دجاجاته، فتدلى به من ساقيه على شجرة، وانبرى يسلخ جلده حياً، وقد أخذ ابن آوى يتلوى و يعوى ألماً، هنا راح ابن البيطار يصرخ في ابن آوى مردداً: العمى في عيونك كم أنت جبان "القصة مجازية سيقت على سبيل الفكاهة والتندر".

وليس ذلك عجباً فالمنطقة كانت تمجد القوة وتبني الحياة على مقتضاها ودواعيها، "يطلق على ذلك تاريخياً بالدور البطولي كما سنحدد".

وبيان ذلك أن جماع مظاهر الحياة كانت مسرودة مسربلة بالقوة وتمجيدها وتعزيزها ومبنية على أساسها في الأفراح والأتراح في الشدة واللين، فمثلاً كانوا يتسامرون وتترجم السهرة عن تحديات ومشارطات لمن يضع ليلاً علامة في جب المعتم في قلعة صهيون رغم خطورة ذلك، وكثيراً ما كانت تقبل المشارطة.

وفي أيام قشر البرغل بالجرن كثيراً ما كانت المبارزة في القشر تجري بين شخصين وتبقى المبارزة حوالي خمس ساعات، وتعلو نداءاتهم بقبول التحدي وفي الأعراس عهدت القرية لعبة المقرعة، حيث يبرز شخص في وسط مهرجان العرس، فيتصدى له شخص آخر بالمقرعة وهي عبارة عن قطعة حبل تبتدئ بقبضة وتنتهي بخيوط حريرية لإصدار الصوت، وشرط اللعبة أن تضرب الساق وكثيراً ما يضع الخصم في المقرعة حبات الخردق لإيلام غريمه، وفي ليلة العرس يلتف الشبان حول العريس الذي يقص شعره، فيمطرونه بالنكزات والقرصات والمؤلمة تعبيراً عن أن العريس سيواجه حالة تتطلب القوة والشجاعة.

هذه المصابيح التي أقمناها تلقي الضوء على الأسباب البعيدة والعميقة للثورة، فهذه الثورة لم تكن تشنجاً وانفلات أعصاب، ولم تصدر عن قرار أملاه الصبية والشطار والطائشون، بل هي عمل إجماعي صدر عن جميع السكان دون أن يشذ عن ذلك شخص واحد أو يستكين أو يتعاون مع الفرنسيين الذين هيأوا وأطلقوا كافة الأسباب للتحدي والانتقام والتشفي من العروبة والإسلام، ومن صلاح الدين بالذات، ولا أدل على رصانة الثورة وحساباتها أنها لم تعلن وتفصح عن المقاومة إلا عقب قرار جماعي اتخذ من قبل العقلاء ورؤساء الأسر في منزل المرحوم مصطفى ادريس (هو الآن ملك شخص من بيت أصلان) في قرية الجنكيل.

صحيح أنه كان هنالك تمردات فردية ولكن القرار بتحمل المسؤولية كاملة هو القرار المتخذ في بيت إدريس، والذي أنتج الثمار الفجة المرة.

وفحوى الحديث نقول: إن الصهاونة أبناء صلاح الدين (لا نقصد بنوة بيولوجية دموية، وإنما بنوة انتساب وانتماء روحي، ومسلك ومنهج) لم يكونوا لقاحيين مطلقاً، وإنما لقاحيون وغير لقاحيين، لقاحيون عندما يتعلق الأمر بالعزة والكرامة، وغير لقاحيين عندما يتطلب موقف العقل والحلم ذلك.

1 - أضواء على التسمية

وسنلقي نظرة عجلى بسيطة حول تسمية المنطقة والقرى الحافة بها والتابعة لها، ثم نقفي ذلك بأضواء على تسمية الثورة والمعنى الذي أطلق عليها، فما هو هذا المجتمع الذي لا يبلغ تعداد سكانه عشرة آلاف نسمة ورغم ذلك آثر الوقوف في وجه فرنسا الدولة القوية العاتية؟

ما هي تلك العوامل الحضارية التي حرّكته وأطلقت العزة والكرامة في روحه ليقف كالطود الشامخ للذود عن الوطن.

لقد اختارت الدولة السورية نتيجة حركة التعريب إطلاق تسمية على هذه المنطقة وهي "صلاح الدين"، فهل هذه التسمية ملائمة، وهل إن أبناء هذه المنطقة يستحقون هذا الشرف كونهم

أبناء صلاح الدين، وهل هذه البنوة بنوة بيولوجية عرقية أثنية أم بنوة ثقافة وحضارة وفكر وإيمان؟[1]

صلاح الدين كما نعلم بطل عربي صميم، وهو في الوقت نفسه مسلم امتشق سيف الإسلام من غمد العروبة، واستطاع أن يقف وقفة العز ويوحد الأجزاء الممزقة على يد السلطة الحاكمة العربية، فهل إن أبناء هذه المنطقة عرب خالصين ذات قسمة إسلامية محضة؟

هذه التساؤلات العميقة والمميزة كانت ضرورية للبحث عن الموضوع، وإلقاء الضوء ساطعاً عليه.

أجل لقد سميت هذه المنطقة باسم (صهيون)، ونعتقد أن هذه التسمية نسبة إلى قلعة صهيون المسماة حالياً قلعة صلاح الدين.

والمتعارف عليه أن هذه التسمية من رواسب الصليبية التي أطلقت على القلعة لا سيما أن هذا الجذر اليهودي المسيحي يسمح ثقافياً بالتأثر اللفظي اليهودي قاصدين من ذلك التأثر بالنبي صهيون الذي هو إسرائيل، منوهين بأن تسمية صهيون بالأصل العميق البعيد ساميّة أطلقت من قبل أحد الشعوب العربية الكنعانية على منطقة في مدينة القدس، وذلك قبل مجيء بني إسرائيل[2] بمعنى أن الكلمة كنعانية قد تكون متسللة إلى التراث اليهودي ثم إلى الثقافة المسيحية، وإن كنت أشير إلى أنه وقع في يدي نسخة من كتاب منسوب إلى المقدسي، وهو عالم من بيت المقدس، وبالتحليل النقدي الداخلي لهذه الوثيقة – ولعل النقد الداخلي هو أهم نقد في علم التاريخ - يؤكد الكتاب أن التسمية منسوبة إلى والدة باني القلعة القائد الصليبي ريتشارد وكانت أمه تسمى (صفيون) لا (صهيون)، فسميت الكلمة باسمها[3].

---

[1] يستكمل الدكتور علي خليل الصورة الحضارية الزاهية للبلدة (كتابه ص180) فيذكر الشارع الكبير في القرية الذي يقطع البلدة من الشرق إلى الغرب (طريق السرايا) والطرق الأخرى المبثوثة في القرية، ولا ينسى المظاهر الحضارية الأخرى، مثل الينابيع: عين سلامة وعين عويجان وعين عثمان، أما النور فكان يؤمن بواسطة (الضو) كما يطلق عليه الفانوس

[2] احمد سوسة: العرب واليهود.

[3] ولقد تضمن النص حرفياً ما يلي: أحوال شخصيات في جبال صهيون: ذكر تاريخ عالم إسلامي يسمى مقدسي نسبة إلى بيت المقدس.

والراجح أن أصل التسمية صفيون لا صهيون إذ لا يعقل التسجيل بالأصل اليهودي من قبل الصليبيين، كما أننا لم نسمع تاريخياً أن هنالك قائداً صليبياً أسمه صهيون أخذت التسمية منه. والمنطقة التي قصدناها بالتسمية والتي هي روابي صهيون (منطقة صلاح الدين)، مؤلفة من عدة قرى بسيطة لا تتجاوز العشر قرى تتحلق وتحيط ببلدة الحفة إحاطة السوار بالمعصم، وهذه الإحاطة طبيعية ليس مردها المركز الاجتماعي الذي تتمتع به حالياً الحفة، وإنما هو أمر يرجع إلى وحدة المجتمع وطبائع الأشياء.

وهذه القرى المحيطة لا يبعد بعضها عن بعض إلا بضعة كيلومترات وهي: (بابنا - الجنكيل - الزنفوفة - بكاس - تفيل - رسيون - اشتبغو - الرقيق - شيرقاق).

هذه هي صلب المنطقة المسماة صهيون[1] (منطقة صلاح الدين)، وهي المنطقة اللباب، وهنالك منطقة تابعة محيطة هي "منجيلا - بزفت - الصمنديل - بيت زعرور...إلخ"، وهذه حال كل هوية فهي تتألف من طبقات تختلف صلادة وقوة وتماسكاً ثم تخلخلاً بالسكان.

ويلاحظ أن هذه المنطقة كانت هي مركز السلطة[2] منذ زمن بعيد مرده ومرجعه إلى الحضارات الساميّة القديمة بدليل تسمية

إن جبل صهيون جبال عاليات شاهقات مغطاة بالأشجار من مختلف أصناف النباتات وعرة المسالك وسميت بصفيون وليس صهيون، وصفيون هي والدة باني قلعة صهيون حيث بناها القائد الصليبي ريتشارد.

[1] يذكر الدكتور عبد الله الحلو في كتابه تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية ص 124 وص 360 أن هذه اللفظة آرامية مشتقة من الجذر * * الذي اشتق منه صهيون وأن صيغة صهيوني تعني البقعة العطشى، والأرجح أن التسمية سريانية قديمة بدليل وجود الهاء فيها وأغلب الجغرافيين العرب يعتبرون كتابة الاسم صَهْيون أصح من صهْيَوْنَ ويبدو أن هنالك تحريفاً باسم سيجون.

ويذكر هذا المؤلف أن اسم بكاس عبارة عن صيغة مخففة لمركب آرامي وسرياني هو :* وكانت معروفة بصنع الكؤوس وهنالك قرية لبنانية مسماة بهذه التسمية.

[2] كان قضاء صهيون يعادل قضاء اللاذقية أي أن بابنا كانت تعادل اللاذقية قبل الإنضمام إليها في مطلع القرن العشرين وكان قضاء صهيون يشمل ناحية جبل

بابنا التي تفيد (بلد الفواكه)، نظراً لاشتهار هذه المنطقة بالفواكه والثمار، ومثلها مثل الكثير من القرى التي لا زالت حتى الآن موسومة بالتسمية السامية (رسيون - بكاس - بزفت - داكله - صمنديل....الخ).

فهذه المنطقة التي هي المركز الحكومي للقضاء كانت نقطة جذب حضارية حيث خضعت للتأثيرات الحضارية المختلفة التي تأثرت بها المنطقة خلافاً للقرى الأخرى البعيدة، ولعلنا نجد مصداق ذلك من التحليل اللغوي لألفاظ القرى، حيث نلاحظ أن قرى منطقة صهيون تأثروا إلى حد ما باستيلاء الصليبيين عليها،كما تأثروا بالحكم السامي الوطني المحلي، بينما لا نرى هذا التأثير إلا على استحياء في عمق المنطقة المسماة مجازاً الأكراد أو جبل دريوس.

وعلى هذا فإننا نقوم بتحليل بسيط لبعض أسماء قرى المنطقة، للكشف عن هذا المعنى الذي سبق بيانه.

- بابنا: وهي تسمية ساميّة كما قلنا، والدليل على ذلك أن موجة التعريب الرسمي التي قامت بها السلطة السورية، لن تغير اسم هذه القرية (الباء للتعريف باللغة السامية) وتفيد التسمية إنها بلد الفواكه.

هذا وندلل بأن كلمة (بابنا) قد تكون مأخوذة من كلمة (أنانا)، وقد ذكرت هذه الكلمة في أسطورة (إنانا) السومرية بين الفلاح والراعي، وهي تشبه القصة التي تتحدث عن قابين وهابيل "وردت في القرآن الكبير قابيل وهابيل...سورة البقرة".

وخلاصة الأسطورة السومرية أن أنانا عزمت على اختيار زوج لها، وكان أخوها أنو يحثها على الزواج من دوموزي الراعي، لكنها كانت تفضل الكيمدو الإله الفلاح[1].

الأكراد -ناحية بيت الشلف- ناحية المهالبة كتابه السالف الذكر ص 337 راجع د. علي خليل

[1] عبد الباسط سيد: البعد التاريخي في تراث ما بين النهرين، مجلة الفكر العربي، بيروت 1989، عدد 58 السنة العاشرة، ص 90.

وتذكر الموسوعة الفلسفية المختصرة [1] أن المفكر اليوناني طاليس في إعلانه أن جميع الأشياء صدرت عن الماء وكان على الأرجح يقدم تعبيراً عقلياً عن فكرة أسطورة، وهي فكرة لها أيضاً ما يشابهها في بابل مؤداها أن العالم نشأ عن نن المياه الأولى على الرغم من أن هذه كانت هي نفسها انعكاساً لعودة الأرض كل عام إلى الظهور في حالة إنحسار النيل ونذكر بأن في قضاء جبلة قريتين بأسم نانو(نينه) القرداحة و نانون ونيني، والأرجح أنهما متأثرتان بالتسمية نن.

- الجنكيل: وقد سميت في موجة التعريب (القادسية) نظراً لنضالها وبأسها وشدتها ضد المستعمر الفرنسي، ومن الممكن أن تكون كلمة الجنكيل مشتقة من لفظة الغابة بالمعنى الفرنسي Jungle [2].

ولا عجب في أن يكون التأثير الصليبي قد أطلق هذه التسمية لأن قرية الجنكيل كانت محاطة نسبياً بالغابات، يؤكد ذلك أن في القرية وعلى طريق كفرية يوجد ناغوص "وهي التسمية الشعبية"، أما المعنى اللغوي الحقيقي فهو "ناؤوس"[3]، والناؤوس أثر يوناني أو روماني وليس عربياً سامياً، ولا نعتقد أن هذا المعبد حربي لأنه تحت الطريق العام ولا يتمتع بهذا الموقع الاستراتيجي، والدليل على التأثير الصليبي في قرية الجنكيل أننا نلاحظ تسميات لا تزال موجودة حتى الآن ومطبوعة بهذا الطابع، وهنالك مثلاً شجر وزهر جميل جداً يظهر زهره في الربيع ويطلق عليه أسم (سنجريق)، وإذا ما حللنا هذه اللفظة نراها مؤلفة من سنت بمعنى (قديس) وجريك بمعنى يوناني (غريق).

هذا هو الاحتمال الأول –وقد سقنا كافة مؤيدات حدوثه - ، بيد أننا نرجح أن تكون الكلمة سامية للأسباب الآتية:

---

[1] الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار العلم للملايين، بيروت، نقلها إلى العربية: فؤاد كامل وجلال العشري و عبد الرشيد الصادق، قدم لها الدكتور زكي نجيب محمود.

[2] المعجم الفرنسي العربي، بيروت، المكتبة الشرقية، المطبعة الكاثوليكية، 1952.

[3] والناؤوس: مقبرة النصارى ويطلق على حجر منقور تُجعل فيه جثة الميت، راجع المنجد في اللغة والعلوم والآداب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط5، ص926

- إن حرف النون فيها زائدة، وهو أمر سائد في اللغات السامية ومنها العربية (كما في كلمة سرندى العربية الذئب والمشتمعة من سرد)، واللغات السامية الأخرى، مثل كلمة: صمنديل وزرندة (مكان وعر في قرية الجنكيل)، وبذلك تكون كلمة جنكيل مشتقها من جكل بمعنى ضرب وغنى، ولا عجب أن تكون هذه التسمية روعيت لأن سكان بابنا في الصيف يرتادونها تمتعاً بهوائها العليل.

إن الجنكيل جزء لا يتجزأ من بابنا، وقد سميت بابنا باسم سامي فالأرجح أن تكون "الجنكيل" بهذه التسمية، ومن ثم لا مجال للجوء إلى تسمية غير السامية.

- رسيون: وهي قرية في منطقة صلاح الدين، ونعتقد أن هذه التسمية مشتقة من كلمة (الرس)، العربية الصرف التي جاء على ذكرها القرآن الكريم في سورة (ق)، قال تعالى: "وأصحاب الرس وثمود".

- صمنديل: ويبدو أن التأثير السامي واضح في هذه الكلمة المنتهية بكلمة "ديل" كما في الكلمات:

اسماعيل/إسرائيل/ميخائيل...الخ.

وهذا التفسير ينطبق على كلمة بعمريل.

والتأثير الصليبي المسيحي واضح من ذلك تسمية قرية القرزيبة بمعنى (كروازابل) أي الصليبيون.

- دفيل: وهي مأخوذة من كلمة دفل العربية السامية بمعنى المكان الوعر، وهذا التحليل اللغوي يشير إلى أن هذا الجذر السامي أصيل وأن التوضع اليوناني الروماني الصليبي لم يقو على إزاحة هذا الجذر المتأصل في الوجود والرسوخ.

وبالفعل فقرية دفيل تقع على رابية عالية وقد يكون هذا العلو دفع إلى التسمية (دفل).

- بزفت وبكاس: تسميتان ساميتان بدليل أن الباء أداة تعريف في اللغات السامية[1]، وأن الجذر اللغوي زفت يعني: منع، طرد، أتعب، أرهق أي مكان وعر.

---

[1] يراجع بالنسبة لقرية بكاس (ومعناها محل الكؤوس): الخوري برصوم أيوب، الأصول السريانية في أسماء المدن والقرى السورية 2000، دار مردين ص 226.

- السامية: وهذه التسمية دليل راسخ على التأثير السامي (قرية قرب الحفة على الطريق العام اللاذقية - الحفة)

- خوفللة: خوف ال أي الخوف من الله.

- برمسه: الباء أداة تعريف وكلمة رمس المكان المنخفض، ومن هنا سمي القبر رمساً، والقرية في ذاتها تقع في منخفض. فالطبقة الصلدة في التسمية عربية سامية والتأثير الأجنبي (يوناني - روماني - صليبي) لم يقو على زحزحة هذه الطبقة ويعتقد الدكتور علي خليل (كتابه ص 268) أن هنالك الكثير من القرى التي تسميتها آرامية مثل: كفر دلبا - كفر عجوز - كفرية بزفت - بخاسون - بعمرين - بشماتا - بلوطة - بجرية - بلهيون - برومة - بمشرفة - بتندره - برادون - بسوقة - برياتس - بنينو - بطرنس - بحالو - بحمره - بيت ياغي - بيت وليوا - بيت الشكوحي - مصبايا - شريفا - باريخا - منجيلا - صرنه - بستا - جبلايا - طعوما - مجدل كيخيا - تلا - جبلايا - سنيا - ولقد قام الباحث جبرائيل سعادة بمقارنة بعض الأسماء السريانية بالقرى الحالية فتوصل إلى النتائج الآتية: حبش: (حبيس الحفة) - كنفي: (كنفة الحفة) - آر: آرا (الحفة) - بصر: وادي باصور الحفة - باشورا الحفة - خترو ريدا: عين الخترير الحفة - المتن: المتن الحفة - خفو: خوفلي الحفة - مصب: مصبايا الحفة - بير: بيرين الحفة - بقعة: بقيعة الحفة - سلمي: سلمى الحفة - اشتبغو: اشتبغو الحفة - دبيقة: الدبيقة المزيرعة - اشيكو: ارشوك البهلولية - خيلو: خدللو عين التينة - قارا: كارورة كنسبا - مرانو: المارونية صلنفة - عرمانو: عرامو الحفة - كوخيانو: مجدل كيخيما - خلود: خدلو الحفة - (الدكتور علي خليل ص 261 وما بعدها).

- اشتبغو: ونرجح أن هذه التسمية عربية سامية وليست أجنبية إذ لو كانت لما أضيف لها المقطع (اس) لأن هذا المقطع يضاف إلى الأفعال لا الأسماء، وبالتالي فلو افترضنا أنها أجنبية لكانت التسمية اسماً لا فعلاً، وهذا هو النهج المتبع في إطلاق كلمة (اشتبرق) على مكان قرب جسر الشغور مشهور بمباهة الغزيرة العذبة.

ويبدو أن كلمة اشتبغو مشتقة من كلمة بغى بمعنى قصد، حيث أن هذا المكان ملاذ لأهل الحفة في الصيف من الحر.

2 - الاسم الذي وسمت به الثورة

وسمنا الثورة بالمهاجرة – ثورة منطقة صلاح الدين، وهو عنوان كبير نسبياً، لكن مبررنا في ذلك هو الحفر المعرفي والعلمي، ثم التبيان والجلاء والوضوح ليس إلا.

والواقع أن لدينا ثلاثة أجهزة مفاهيمية يجب تحليلها وفض غلافاتها ومكوناتها، فما هي دلالات هذه المفاهيم على ضوء إسقاطات علم التاريخ الاجتماعي؟أو لنقل السوسيو الاجتماعية حسب منطق العلوم الحديثة؟

- المهاجرة أو التسمية الشعبية للثورة:

هذا هو المصطلح الشعبي الذي أطلقته الثورة على نفسها، فهل انبثق الاستعمال المذكور عن اللاشعور الجمعي أو المخيال العام الشعبي إنبثاقاً عفوياً تلقائياً، وما هي آلية هذا الإنبثاق؟..مع التنويه بأن الشعب العربي كثيراً ما يطلق تسميات جهادية على أحداثه، وهكذا أطلق على أتاتورك –وقبل أن تسحب منه الثقة بسبب تمغربه - تسمية الغازي.

نعود ونطرح السؤال: هل إن الثورة أطلقت على نفسها عفوياً هذه التسمية، أم أن المخيال الجمعي السوري هو الذي قام بذلك؟. وبمعنى أوضح هل التسمية كانت وليدة احتكاك الحدث ودغدغته مباشرة وتلقائياً وتفاعلاً عفوياً؟.

هكذا نجد أنه محتوم علينا توضيح المقصود بالضمير الجمعي أو الوجدان الشعبي أو المخيال العام conscience publique وغير ذلك من المفاهيم.

ينطلق "بيير أنصار" في تعريف المخيال الاجتماعي من تعريف ماكس فيبر للفعل الاجتماعي " على أنه نشاط يحمل معنى يشد إليه الفاعلين الاجتماعيين، فينظمون سلوكهم على أساسه، يقول: والواقع أن "الفعل الاجتماعي" يفترض من أجل إنجازه أن يندمج كل سلوك فردي في عمل يحمل طابع الأستمرار وأن تنتظم التصرفات وتتجاوب بعضها مع بعض طبقاً لقواعد ضمنية مستضمرة، وبعبارة أخرى فالممارسة الاجتماعية بوصفها تنتظم شتات تصرف الأفراد وتوجهه نحو أهداف مشتركة، تقتضي

وجود بنية معقدة من القيم وعمليات التعيين والإندماج المحمّل بمعان ودلالات، كما تفترض لغة رمزية (شفرة) اجتماعية مستضمرة "ليس هناك أية ممارسة اجتماعية يمكن إرجاعها فقط إلى عناصرها الفيزيقية والمادية، ذلك لأنه بما يشكل جوهر الممارسة الاجتماعية أنها تسارع إلى التحقق في شبكة من الدلالات يتم فيها استيعاب وتجاوز الطابع الجزئي للتصرفات والأفراد واللحظات، ومن هنا فإن كل مجتمع ينشئ لنفسه مجموعة منظمة من التصورات والتمثلات، أي مخيالاً من خلاله يعيد المجتمع إنتاج نفسه، مخيالاً يقوم بجعل الجماعة تتصرف بواسطته على نفسها، ويوزع الهويات والأدوار، ويعبر عن الحاجات الجماعية والأهداف المنشودة، "والمجتمعات الحديثة مثلها مثل المجتمعات التي لا تعرف الكتابة تنتج هذه المخاييل الاجتماعية، هذه المنظومات من التمثلات، ومن خلالها تقوم بعملية التعيين الذاتي، تعيين نفسها بنفسها، وتثبت على شكل رموز معاييرها وقيمها[1]".

ويقول باحث آخر: ((بقيام الجماعات البشرية بإنشاء معان ودلالات مخيالية اجتماعية تتمكن من إعطاء معنى لكل ما هو موجود، لكل ما يمكن أن يقوم فيها أو يقوم خارجها، وأيضاً فبفضل هذه المعاني والدلالات المخيالية الاجتماعية تقوم الجماعات البشرية بتدشين العمل التاريخي وتنشيطه...

إن كل مجتمع يقدم نفسه للرؤيا، لرؤية الآخرين له من خلال الصورة التي يكونها عن نفسه، فمن خلال هذا الموشور يرى الآخر ويصدر عليه حكمه، وهذه التمثلات والتصورات المخيالية تمارس سلطتها ليس في ميدان الشعور فحسب، بل أيضاً في مجال الفعل الإجتماعي[2])).

وفي الواقع فمخيالنا الاجتماعي العربي هو الصرح الخيالي المليء برأسمالنا من المآثر والبطولات وأنواع المعاناة، الصرح

---

[1] بيير أنصار: إيدولوجيات الصراعات والسلطات، باريس المطبعة العالمية في فرنسا 1977، ص21

[2] Claude Gillet " Les lectures: cours social elecriture revele" Studia la lamice lxüml XXX Ip p.49-50

الذي يسكنه عدد كبير من رموز الماضي، مثل الشنفرى وامرؤ القيس وعمرو بن كلثوم وحاتم الطائي وآل ياسر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والحسين وعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد وألف ليلة وليلة وصلاح الدين والأولياء الصالحين وأبو زيد الهلالي وجمال عبد الناصر... إضافة إلى رموز الحاضر " المارد العربي" والغد المنشود..الخ.

وإلى جانب هذا المخيال العربي الإسلامي المشترك تقوم مخاييل متفرعة عنه كالمخيال الشيعي الذي يشكل الحسين بن علي الرمز المركزي فيه، والمخيال العشائري والطائفي والحزبي[1].

إذاً هنالك مخيال عام للأمة العربية ومخاييل خاصة للجماعة أو القوم أو العشيرة..إلخ.

ومنطقة صلاح الدين بما عانته من ويلات المستعمر الفرنسي تشكل فيها مخيال خاص بها هو ثورة (المهاجرة)، كيف لا والله تعالى يقول: ((الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق))، فالإخراج من الديار وحرمان الجماعة الوطن والأرض، هو حرمان من أكبر نعمة أعطيت للإنسان، والقرآن الكريم تمتلئ صفحاته بكلمة (التمكن)، فهذا التمكن في الأرض هو النعمة الكبرى التي ما بعدها خير ونعمة.

وفي الواقع، فحدث (المهاجرة) التاريخي الاجتماعي السياسي شكل محوراً أساسياً في حياة الجماعة (جماعة منطقة صلاح الدين)، وقد رمى بثقله وكلكله على منظومة تفكيرها ونسق حياتها ورؤاها ومستقبلها.

وعودة إلى ما قلناه سابقاً، فقد كانت الثورة محل فخر الجماعة واعتزازها الروحي والديني، فكان المتحدث العادي إذا أراد أن يحدد تاريخ واقعة معينة قاس ذلك على حدث الهاجرة الذي أصبح "روزنامة شعبية" وتقويماً زمنياً وسلوكاً حياتياً أمثل، فكانت المرأة مثلاً تخاطب زميلتها قائلة: لقد تزوجت بعد أن عدنا من المهاجرة بكذا سنة.

---

[1] د. محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ط1، 99،ص16

لكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه هو: هل لهذه التسمية علاقة اشتقاق بهجرة الرسول الأعظم؟ و بالتالي هل كانت انبثاقاً عفوياً تلقائياً أطلقته الجماعة على نفسها[1].

وحقيقة الأمر فالجماعة كانت ولا تزال تعطي تقديساً خاصاً للإسلام وتعتبره مقياساً لكل شيء في الحياة وترنو إليه من خلال وجدانها وقيمها وتتخذه موشوراً ثقافياً تنظر من خلاله إلى الحياة والوجود، وهنالك عوامل كثيرة نستهدي بها لتفسير ذلك[2]، وأهمها:

- ظاهرة انفعال شعب المنطقة بالحدث العربي والإسلامي، وأتذكر كم كان الأخباريون يتكلمون مثلاً عن حروب البلقان بين الفرنجة (حسب تعبيرهم) وبين المسلمين، كما كنت أسمع تحدثهم عن أخبار حملة الطليان على ليبيا ومقاومة البطل عمر المختار، ثم حرب اليمن ضد الأتراك، وقد رأيت بأم عيني مجاهدي الجماعة يتدافعون سنة /1948/ للذهاب إلى فلسطين جهاداً في سبيل الوطن والعروبة والإسلام[3]، وأخيراً، ذلك الكابوس الممض والزلزال الأكبر الشنيع الذي حاق بالأمة في العراق، في راهنيتنا.

---

[1] تعاملوا مع حدثهم محاولين أن يضعوا عليه المسحة الإلهية تيمناً بالحدث الأجل الأعظم هجرة الرسول التي كانت فاصلاً في التاريخ البشري بين الحق والباطل، وقد يكون هذا الانبثاق ولد عفوياً تلقائياً في ضمير الجماعة لأن هذه الجماعة كانت محكومة بضميرها وإرادتها الشعبية العامة (السلطة المغفلة)، لا بأية إرادة سلطة مجسدة.

[2] كانت الجماعة حذرة جداً مع استعمال كلمة صهاينة فاستعملت بدلاً من ذلك كلمة صهاونة ابتعاداً عن البلبلة والسقوط في التسمية اليهودية البغيضة.

[3] كان من أبرز المتطوعين في جيش الإنقاذ سنة 1948 المرحوم حمدو كنعان مضرب الأمثال في شجاعته النادرة، ولكن الكريم الحر ليس له عمر، وهكذا استشهد في فلسطين. ثم البطل المرحوم ابو حمدو حسن (بابنا) وأخيراً فالبطل الشهم المغوار علي سعيد زريق الذي سجل في المعركة مع اليهود قصة فريدة في أحداثها.

وتتلخص هذه القصة في أنه عين في جيش الإنقاذ (بزعامة البطل فوزي القاوقجي) في مدينة صفد وكان تشكيله في القلعة، وقد التحق بها لبلا هو ورفاقه على أساس أن يتعرفوا على مواقع المدينة في النهار، وبعد فترة قصيرة، لم يشعروا إلا واليهود يحتلون القسم السفلي من القلعة وينادونهم مجاهدي الإنقاذ بالتسليم، هنا احتار هؤلاء وفكروا في النتيجة وما كان لبعضهم إلا أن يبكي، لكن البطل علي سعيد قال لصديقه وجيه الأبرص : أنا سأقفز من أعالي القلعة ولن أسلم نفسي فوافقه الصديق "وجيه" وحدث أن هطلت أمطار غزيرة جداً، ألهت اليهود الذين أخذوا يرقصون ويمرحون، هنا قفز البطل علي دون أن يدري النتيجة، ولكن الله أنقذه حيث سقط في الطابق الأول ثم قفز مرة ثانية على الأرض ونجا في حين أن أحداً من رفاقه لم يتجرأ على القفز وأسروا جميعاً.

لنحلل ثقافة المنطقة باعتبار الثقافة هي روح الأمة، وهنا فلنتناول الكتب الثقافية الشعبية التي كانت تقرأ بين ظهراني الجماعة على علمي ومعرفتي ومشاهدتي "سيرة عنترة بن شداد – سيرة ذات الهمة - سيرة سيف بن ذي يزن – سيرة بني هلال – سيرة ألف ليلة وليلة - ...إلخ". وإنني أتذكر أنه كان لدى المرحوم والدي السيرة الكاملة لعنترة بن شداد المؤلفة من تسعة أجزاء وكان أبناء القرية يدلفون إلينا لاستعارتها.

ظاهرة نشوء الأحزاب السياسية في المنطقة، فهذه المنطقة عهدت الأحزاب الدينية والبعثية والناصرية، ولم نلمح أي أثر للأفكار السياسية الأخرى.. فلماذا ذلك؟ - الجواب: لأن الضمير الجمعي هو ضمير عربي إسلامي، لا يقبل الملوثات الثقافية الغربية.

لا يزال الشعب الاجتماعي يسوس كثيراً من رسائله وقضاياه على أساس الشريعة الإسلامية، ولنستمع إلى هذا الخبر الحي الذي عهدته بنفسي.

ذهبت بمعية شقيقي الأكبر المرحوم الشيخ ممدوح لمصالحة عائلتين في قرية القادسية بسبب جريمة قتل وقعت في القرية المذكورة، وكنت آنذاك محامياً وأحمل شهادة العالمية (الدكتوراه) في القانون، ومع ذلك فقد أعطيت الكلمة في الحديث للشيخ المرحوم ممدوح لتحديد مبلغ الدية وفقاً للشريعة، وقد أجاب الشيخ مائة من الإبل، وهنا انبريت لمناقشة شقيقي قائلاً له: إن هذه الدية كانت تمحو العقوبة بصورة كاملة، أما الآن فالدية الشرعية لا تطفئ إلا الحق الشخصي ويبقى الحق العام قائماً ومحركاً من قبل الدولة، وهو أغلظ من الحق الشخصي، ومن ثم فهذا الخبر يوضح طريقة تفكير الجماعة وكونه لا يزال يقيس الأمور بمقياس أحكام الشريعة، ليس إلا رغم قيام القانون الوضعي وسيادته.

الأهمية الكبرى للشعر في خلد الجماعة – والشعر ملكة ذاتية في البناء الاجتماعي - الأمر الذي مكن الجماعة وحدها في قرية القادسية (الجنكيل سابقاً) من إبداع وصياغة ثلاثة شعراء زجالين

هم: المرحوم محمد عابدين درويش - المرحوم محمد وجيه طيبا - المرحوم خالد ناصر.

والأغرب في الأمر أن هؤلاء الزجالين كانت لهم -إلى جانب عمود الشعر - الملكة الكبرى في العملية الشعرية المعروفة بـ(النقائض)، وهي أن يأتي المبارز ببيت شعري زجلي يتناول موضوع معين، وسرعان ما يأتي المحاور الآخر بالنقيض أي ببيت شعر آخر رداً على البيت الأول.

قد أكون أطلت الكلام، ولكن من يتصفح موسوعة المرحوم جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)، يدرك أهمية ودور التفصيل في الدراسات التاريخية والإنتربولوجية، فالمؤلف كان حريصاً على أن يأتي على ذكر أصغر وأدق الأحداث، وهنا لا يسعني إلا أن أذكر بالمبدأ الأصولي في الشريعة الإسلامية وهو لا صغيرة مع التكرار.

ومغزى هذا الحديث الطويل أن (المهاجرة) لم تكن تسمية عرضية عشوائية للمجتمع[1]، بل حدث جليل مجبول في الضمير الشعبي للجماعة، وفي آهاتها وأحلامها وتطلعاتها ومصيرها.

---

[1] استعملت كلمة مجتمع دون جماعة أو قوم التي قد تكتسي ثوباً أثنياً أو عرقياً، هذا فضلاً عن أن هذا الاستعمال ينطوي على مضمون اجتماعي وليس ثقافياً أو عرقياً أو لغوياً علماً أن الصهاونة لم ينعتوا أنفسهم بأنهم ينحدرون من أب أو جد أو رئيس قبيلة أو عشيرة، وإذا كانوا قد أسموا أنفسهم أنهم أبناء صلاح الدين، فهم أبناؤه بالروح والعقيدة والإيمان ليس إلا.

لهذه الأسباب فإنني أنعي تسمية عشيرة الصهاينة من قبل السيد أدهم الجندي، إذ أن منطقة الحفة كانت وصلت إلى طور المجتمع متجاوزة كل طور اجتماعي آخر.

الأسباب المباشرة وغير المباشرة للثورة

- تمهيد -

كما أكدنا عليه سابقاً ليس هنالك سبب خطي: linaire واحد، ساد الظروف وحرك الأحداث، بل هنالك أسباب عديدة أخذت بعضها بعضاً، وأخذت تتحرك وتفعل فعلتها، ولعلنا نلخص الأمر في الأسباب الهامة الآتية:

- الأسباب الحضارية العمرانية التي أخذت تستحث الروح والهمم.
- النفسية الروحية لابن المنطقة التي ترعرع عليها منذ أقدم الأزمان حباً للوطن والجهاد في سبيله.
- ولعلنا نلخص ذلك في كلمتين اثنتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان هي (العروبة والإسلام)، فهاتان الكلمتان هما الرئتان اللتان يتنفس بهما ابن المنطقة دون سواهما، وقد عاش منذ عهد صلاح الدين، وقبل ذلك وبعده على هذه الروح لا يتنفس ولا يعلم طعماً للحياة بدون ذلك.

لقد دنست أقدام المستعمر أرض الوطن في اللاذقية فكان ذلك – وفي اليوم الثالث من هذا النبأ العظيم - مدعاة لأن يتصدى بطلان من بابنا هما حسن طه وشخص من بيت المدنية إلى قتل ضابط فرنسي أمام سراي اللاذقية، ثم تتابعت بعد ذلك الأحداث وفي الكفة الثانية، من الميزان، روح الفرنسي روح غورو التي حركته ودفعته لأن يكرر ما قاله الجنرال اللمبي (الانكليزي): لقد عدنا يا صلاح الدين.. فإذن هنا الشرارة التي ألقيت في برميل البارود ففجرته.

وتأسيساً على ما تقدم سندرس الأسباب المباشرة وغير المباشرة في الآتي:

الأسباب البعيدة للثورة

- ((ومسألة النار في الرماد)) -

ترفض المناهج التاريخية الحديثة الآخذ بالتفسير الأحادي الخطي للحدث التاريخي، وتركز بالمقابل على تعددية العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية المحركة للتاريخ والمنتجة لأحداثه، وخير من يصور لنا ذلك قول الشاعر العربي[1]:

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تزكى وإن الحرب أولها كلام

فالمنطقة في عقيدتها وتكوينها النفسي الثقافي القومي والوطني، أي في طبقاتها التكوينية العميقة، عربية إسلامية، وما فتئت تتأثر وتنفعل وجدانياً بأحداث العرب، حيث ذهب منها أبطال إلى ليبيا لمقاومة غزو الطليان، كما شاركوا في حروب البلقان وما تفرع عنها من مجازر ضد المسلمين.

وبطرفة عين خاطفة وانتباهتها ترى أقدام الفرنسيين تطأ أقداس أرضهم وكرامتهم، وهم حماة الديار منذ أيام البطل صلاح الدين، فكيف إذن يقبلون الإذلال والمهانة؟

فالموارد التاريخية تؤكد أن صلاح الدين أعد جيشه في قرية بكاس لمدة ستة أشهر، وقد توفي ابنه حسام هنالك، ثم حدثت معركة شرق القلعة حيث كانت المدينة.

قد يقول القائل إن منطقة صلاح الدين كانت نوعاً ما تؤيد الحكم العثماني، والجواب على ذلك أن هذا الأمر لم يكن تأييد تبعيه وضد الكرامة العربية، وإنما ضد الغرب وضد الفرنجة، وعندما أخذ أتاتورك يطرح بابتذال وكاريكاتورية "علمانيته السطحية المبتذلة" أخذت المنطقة في التحول، وأشاحت وجهها عن الحليف.

ألم يكن ذلك موقف الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل الذي اعتبر الأب الروحي لثورة /23/ تموز في مصر، فقد كان

---

[1] الشاعر هو نصر بن سيار والي الأمويين على العراق

المذكور يرفض تفكيك الدار الإسلامية وكان حسه الوجداني التاريخي يستشرف ويستشف عدم الثقة بالغرب، ولكن عندما حدث الإنفصال بيننا وبين الأتراك تزعم المذكور الحركة الوطنية المصرية، وتكلم عن محض العروبة.

ونعود لنكرر ونؤكد أن أبناء منطقة صلاح الدين نفروا أي نفار ووثبوا أي وثوب، ضد الفرنسيين قبل أن تطأ أقدامهم المنطقة، فكان نفارهم عربياً وطنياً خالصاً من أية شائبة، "وما إغارة المرحوم البطل الشهيد حسن طه والمرحوم على الحفيان زريق" على الفرنسيين في الزقزقانية إلا تأكيداً لمقولتنا هذه.

وبالطبع فكل ذلك مدعاة لرفضنا للتفسير الخطي linaire الأحادي للتاريخ، وهذا ما نلمحه ونستشفه من رواية الأخباري السيد آل الجندي، فقد جاء في قوله مايلي: ولما ازدادت الأحوال في سوريا خطورة وكان الجنرال غورو قائد الجيوش الفرنسية ورأى أن يوجه إليها جهوده الحربية، فاضطر بعد انهزام جيوشه أمام ضربات الأتراك القاصمة لعقد الهدنة مع الأتراك.[1]

والخلاصة هنالك تراكمات حدثية تاريخية متعددة أخذت تتضايف وتتواشج يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، منها على سبيل المثال والذكر لا الحصر إعدام خمسة أشخاص منهم البطل المرحوم رشيد ناصر من قرية الجنكيل[2]، ومن ذلك استشهاد حسن طه – العضو البارز في الثورة – في الثكنة العسكرية للفرنسيين في الجنكيل على أثر مهاجمته لها[3].

وأول شهيد في الثورة هو المرحوم علي صبحي شيخ خميس[4] (من الجنكيل)، وذلك على إثر تصدي الثوار للحملة الفرنسية

---

[1] يذكر الأستاذ فايز قوصره في كتابه السالف الذكر أن الهدنة حدثت عام 1924 وقد استطاع الفرنسيون أن يسحبوا جنودهم من كيليكيا وعددها خمسين ألف جندي، وكان لهذا الحادث أثر على ثورة الشمال بقيادة هنانو.

[2] رمي بالرصاص في ساحة عين الجنكيل حسب رواية الفاضل عدنان أصلان (من الجنكيل)

[3] الرواية السابقة

[4] بينما يذكر آدهم آل الجندي (كتابه ص 23) أن المرحوم علي الشيخ خميس كان زعيماً دينياً ذا بطش وبأس، خشي الفرنسيون سطوته ونفوذه، وقد اشترك في ثورة المجاهد الكبير

المتجهة إلى بابنا والجنكيل، وهذا التصدي للحملة الفرنسية تم في قرية بزفت.

ولعل سؤالاً يخطر على البال هو لماذا سلك الفرنسيون طريق (بزفت) وهو طريق وعر غير رسمي، وغير طبيعي أن تسلكه الحامية الفرنسية؟ الجواب: للتخفي من عيون الثوار التي كانت تترصد الفرنسيين وتتبع آثارهم.

فالأحداث التي بادرها ثوار منطقة صلاح الدين منذ أن وطأت أقدام المستعمر أرض الوطن، وقبل احتلال منطقة صهيون "اغتيال النقيب الفرنسي"، دليل على الرفض الكامل الذي لم يكن ينتظر دخول المستعمر، ولم يكن لينتظر جواب المصالح المادية الآنية، بل حكم عليه أهل المنطقة فوراً بالرفض الكامل، وكانت تتواتر صعوداً بالتأجج والاشتعال، ولم يكن أبناء المنطقة الثائرة لينتظروا ويراقبوا أعمال المستعمر وتصرفاته، ثم يثوروا عليه، بل فالرفض أولاً، وكانت الأيام تنكشف عن هذا الصعيد منها مجيء المرحوم القسام إلى المنطقة، ثم ذهاب نفر من رجال المنطقة إلى حلب للاتصال بأهلها، كل ذلك حدث قبل الانفجار النهائي.

- نذر الثورة -

وننوه بما دللنا به سابقاً من أن الثورة تعني بالمعنى الواسع lato sensu قلب الأوضاع الاجتماعية رأساً على عقب، كما تعني بالمعنى الضيق stricto sunsu الرفض والمقاطعة الكاملة للمستعمر.

أجل لقد دخل المستعمر مركز الحكومة في بابنا والجنكيل، وما كاد يضع أقدامه على أرض المركز حتى نهض النفور والرفض الكامل من كل حدب وصوب في المنطقة، كأننا بالتمام حيال رفض عضوي (بيولوجي) للجسم الغريب.

ولقد تعددت معالم ومظاهر هذا الرفض كما يتضح مما يلي:

عمر البيطار وأبلى في المعارك ضد الفرنسيين أعظم البلاء واستشهد في إحدى معاركها الدامية وقبره يزار باعتباره شهيداً اشتهر بوطنيته وإخلاصه وتقواه.

1 - غشي المستعمر المنطقة وأرزأها وحل بها، وهو يلوح بقبضة يده طالباً تسليم الثوار الذين هاجموه في اللاذقية "طه وزريق الحفيان"، وطبعاً فالثوار هربوا وتواروا عن الأنظار ورفضت المنطقة تسليم أبناءها، وهنالك عوامل تمثل الجذر النفسي للمستعمر، فلقد خرج منتصراً منفتخ الأوداج من الحرب العالمية الأولى، فجاء يتصرف على هذا الأساس، وبهذه العقلية والنفسية مع العلم أنه تلقى صفعة من المقاومة التركية في كيليكيا وكأنه أراد التعويض وإظهار عدم التأثير عليه.

2 - رفض التنظيم الاجتماعي التقليدي في المنطقة -المتفرع عن العادات والقيم الإسلامية - شبه الفصل الحاد بين الرجال والنساء، وقام هذا الترتيب الوظائفي على أساس أعمال معينة بالمرأة مثل خبز الخبز في التنور وتأمين الماء من العين وغيره ذلك، ولقد كانت العين المسماة (عين سلامة) حرماً آمناً يكاد لا يطأه ولا يقصده إلا النساء، إذ كانت المرأة تنجز الكثير من أشغالها ومتطلبات بيتها على هذه العين، واستطراداً فلا بد من وقفة بسيطة نتكلم فيها على خصائص وسمات العين المذكورة، ولعلنا نجد هذا المطلوب في التسمية (سلامة)...

وواقع الأمر فالعين المشار إليها مصدر ومظهر العذوبة والإنعاش والإسلاس، ولقد مضى زمن مديد كانت مضرب الأمثال حول كونها من أعذب المياه في سوريا، وأكثرها نفعاً ونجاعة للصحة، وكان المصطافون من اللاذقية يؤكدون ذلك، لكن هذه الشهرة أخذت تذوي وتضمحل بعد بزوغ مركزي الاصطياف في صلنفة وسلمى.

لقد كانت عين سلامة مرفقاً اجتماعياً وإقتصادياً لمجتمع بابنا والجنكيل، ومع ذلك فقد جاء المستعمر بعنجهيته وبغاله التي تجر العربات الحربية، ولم يرعو عن اقتحام الحرم الآمن للنساء سقياً لبغاله، بل كثيراً ما كانت عساكره تتحرش بالنساء اللواتي يكنّ على العين، وهنا حدث ما لم يتصوره عقل ولا ترضاه نفس، هو قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب، حيث اضطر الرجال إلى

تأمين المياه بدل النساء، وقد وجد المستعمر فرصته في الضغط على هؤلاء ذريعة للوصول إلى مآربه والتلويح بمطالبه.

كانت روح الثائر البطل المرحوم عز الدين قسام أبداً تغز السير وتستنهض الهمم وتثير العزائم وتحرك أريج الجهاد في سبيل الله والوطن، ولعل البطل المذكور هو الملهم الكبير للثورة وناموسها والمحرك العظيم، والأب الروحي لها، إذ كان الشيخ الثائر أحمد أدريس "من الزنقوفة" صهراً للشيخ القسام مما أتاح له أن يتلمس القوة والصلابة والشهامة في نفوس (الصهاونة) وأن يدرك أن هذه المنطقة هي القرار المكين للثورة، قال تعالى"((ماء مهين في قرار مكين)).

وبيان ذلك، وفحواه أن بذرة الحياة البسيطة لا بد لها من الحضانة والقاعدة كي تهتز وتربو، ولتنتج كل زوج بهيج[1]، أجل -وكما قلنا - حضر المذكور إلى المنطقة وألقى خطبة عصماء أشعل فيها المنطقة حماساً وثقة بالله والوطن[2]، وتتابعت الأحداث العنيفة التي توتر الجو تزيده تصعيداً وتملؤه رعباً، فقد حاك المستعمر لعبة قصد منها احتجاز عدد لا يستهان منه من قريتي بابنا والجنكيل، فدبر وليمة دعا إليها الشباب، وكانت الغاية منها احتجازهم، وعلم هؤلاء بالمؤامرة من قبل وشاية بعض الجنود الفرنسيين العرب المغاربة المتطوعين في الجيش الفرنسي، واستطاع الشباب المحتجزون أن يثقبوا الحائط و يفتحوا ثغرة ويهربوا بعد قتل عدد من الجنود والضباط الفرنسيين، مع التنويه بأن الفرنسيين كانوا مصممون على نقل الشباب المحتجزين إلى جزيرة أرواد.

هنا كان عدد من زعماء المنطقة متأهبين لقصد مدينة الشهباء حلب للاتصال بزعمائها من أجل تفجير الثورة، وفي غمرة هذه الأحداث استيقظت منطقة صلاح الدين لتشهد منظراً لم تعهده من قبل، هو أن خمسة أبطال من أبناء جلدتهم يعلقون على المشانق في قرية الجنكيل (كان منهم البطل رشيد ناصر من قرية الجنكيل)، فقد كانت هذه الفعلة

---

[1] نحن هنا أمام تضمين للآية القائلة:((اهتزت وربت بكل زوج مهيب))

[2] شهادة الفاضلين محمد شاكر ياسين (من شير القاق) والمرحوم جمال مفتي من اللاذقية

صدمة قوية للمنطقة حركت وثب ورفض الروح وزادتها ضراماً بعد ضرام، والتهاباً بعد التهاب، فكانت عود الثقاب الذي سقط في برميل البارود، هذا ونشير استطراداً بأن المعلومات والوقائع التي تناولت هذه الثورة شحيحة ومحدودة، فقد جاء في كتاب الباحث فايز قوصره "الثورة العربية في الشمال السوري ص59" ما يلي: ((وفي 1919/4/16م انتقلت الثورة من منطقة باتياس وطرطوس إلى منطقة جبل صهيون ووصل القتال بين الطرفين إلى حد الإلتحام، وانتقم الفرنسيون بحرق بعض أهالي بابنا في بيوتهم وهم أحياء وعددهم 60 - 70 شخصاً فاضطر أهالي المنطقة وعددهم عشرة آلاف، للجلاء إلى منطقة جسر الشغور، وبعد معركة بابنا حدثت معركة في قرية سلمى ومعركة قرب ترتياح اسر الوطنيون مفرزة عددها 50 جندياً فرنسياً وسقط من الحملة 7 قتلى ولم يستشهد من الثوار أحد)).

والحقيقة فالثورة أول ما اشتعلت في صهيون بل في اليوم الثاني من وصول الفرنسيين إلى اللاذقية (لا إلى صهيون)، إذ قتل ضابط فرنسي برتبة ملازم أول قتله البطل حسن طه والمدنية، وكل ما هنالك أن أهالي الجنكيل لم يستطيعوا ترحيل رجل طاعن في السن من بيت السعيد وامرأة شابة هي فريدة عابدين درويش وهي خالتي وزوجه عمي المرحوم محمود على أساس العودة إليهما وترحيلهما، والحقيقة لا أحد يعلم مصيرهما.

ثم إن الالتحام مع الفرنسيين حدث قرب ترتياح أي في بلاطة ستربه قرب دورين وهزم الفرنسيون شر هزيمة، هذا مع العلم أن أهالي صهيون هاجروا إلى منطقة الأكراد أو جسر الشغور، كما أن الفرنسيين حرقوا بعض البيوت في بابنا والجنكيل ولا تزال آثار الحريق باقية حتى الآن.

أول رصاصة أطلقت في سوريا
ضد المستعمر الفرنسي الغاشم [1]

ما كادت أقدام المستعمر الفرنسي تطأ مدينة[2] اللاذقية في شهر تشرين /1918/ حتى انبرت براعم المقاومة تتفتح، وبصورة أدق ففي الأيام الثلاثة الأولى من وصول الحملة، قام شابان من قرية بابنا الأول من بيت مدنية والثاني المجاهد حسن طه، قاما بإطلاق النار على ضابط فرنسي برتبة نقيب وأردوه قتيلاً وبعد أيام قليلة تشكل فريق من المجاهدين عددهم بين التسعة أو الثلاث عشر مجاهداً، ليتصدوا لحملة فرنسية على جسر نهر الكبير قرب اللاذقية، حيث اندلعت المعركة وانجلت عن مقتل جميع المجاهدين دون أن ينجو منهم أحد، وذلك بسبب ضخامة الحملة الفرنسية وبسالة المجاهدين، وقد أكد لي الأستاذ بسام يونس هذه الرواية كما أكد أن الحملات على ثكنات الفرنسيين في اللاذقية لم تنقطع، كل ذلك وقبل أن تحتل الحملة الفرنسية منطقة صلاح الدين.

ولا ندري ما إذا كانت هذه المعركة هي المعركة التي أشار إليها السيد أدهم آل الجندي، والتي جرت في قرية ست خيرن قرب النهر الكبير وقتل فيها : مصطفى بن سليم الجندي و يحيى الصباغ وولده عبد الكامن ولم يعرف للقتلى أثر لرميهم في النهر[3]

وتؤكد الروايات الشفوية التي استقيتها من بعض قطان الجنكيل (خاصة رواية الصديق عدنان أصلان) أن أبرز الذين أغاروا على ثكنات الفرنسيين في اللاذقية هم حسن طه، وأن أهم غاراته كانت على ثكنة في الزقزقاينة، وقد اشترك في هذه الغارات المرحوم علي الحفيان واستشهد أحد الثوار قرب منطقة اليهودية القريبة من الزقزقانية[4].

---

[1] يراجع في ذلك كلمة المرحوم المحامي توفيق هارون

[2] رواية الأستاذ بسام يونس من قرية مشقيتا اللاذقية وكان والده المرحوم يكن احتراماً زائداً لمنطقة صلاح الدين وسكانها وثورتها.

[3] أدهم آل الجندي: كتابه ص24 و رواية الفاضل عدنان أصلان

[4] رواية الفاضل عدنان أصلان

والذي نستطيع تأكيده، أنه لم يكن هنالك قرار صريح بإجازة تصرف الثوار، وإنما قام هؤلاء بذلك على عاتقهم ومسؤوليتهم، وإن كان ذلك قد اقترن بقبول ضمني من مجتمع الثورة لسبب بسيط هو أنه ليس أحداً من المنطقة استنكار الحدث.

والتقليد العالمي في مثل هذا الحال أن يعلن السكان استنكرهم ورفضهم لمثل هذه الأعمال حتى يتبرؤوا من العمل وتسقط عنهم المسؤولية، لكن سكان المنطقة أعلنوا حماية المجاهدين ورفضوا تسليمهم للفرنسيين الذين اشترطوا في هذا الطلب اعتبار الثوار الفاعلين خارجين عن القانون وكان هذا المطلب هو الشرط الذي صعب التغلب عليه لأنه كان يقابل برفض إجماعي.

هنا أخذت الأمور تتعقد وتتشابك نحو إشعال النار والانفجار، ولم يعالج المستعمر الفرنسي الأمور بحكمة، بل كان يوقد الموقد حيث قام فجأة بإعدام خمسة أشخاص شنقاً من سكان بابنا والجنكيل منهم المرحوم رشيد ناصر ولقد روت لي والدتي صورة الإعدام الذي شاهدته بأم عينيها والذي نفذ قرب منزلنا في القرية، كل ذلك باستكبار وعناد وقسوة واستصغار للمواطنين.

- الأسباب المباشرة للثورة والعمليات القتالية الكبرى -

نشير بداية إلى رفض الرأي الذي يرجع تفسير الظواهر التاريخية الاجتماعية الكبرى، إلى سبب بعينه أو حدث بذاته.

وحقيقة الأمر أن العوامل الاجتماعية معقدة متشابكة تتواشج بها الأسباب الكثيرة القريبة والبعيدة الصغيرة والكبيرة، وهذه الرؤية الرحبة تدفعنا للقول بأن موضوع دراستنا اجتمعت حوله أسباب وأسباب، ونحن بدورنا صنفنا هذه الأسباب إلى صنفين: العوامل البعيدة ثم العوامل القريبة المباشرة وبالتالي فإذا كنا قد أشرنا إلى بعض العوامل البعيدة في ثنايا وطوايا أقوالنا السابقة، فإننا سنتعامل ونعانق هاتيك الأسباب المباشرة التي دفعت بالسخط إلى درجة الغليان والإنفجار، فما هي هذه العوامل؟

لا بد من التقرير بداية إلى أن الخط البياني للسخط على المستعمر الفرنسي كانت تتصاعد وتائره يوماً بعد يوم، وكانت الساعة آتية لا ريب فيها، تحتاج فقط إلى عود ثقاب لإشعال برميل البارود، ومع ذلك فإننا سنأخذ برأي السيد أدهم آل الجندي ونورد –على سعة النص - حرفياً ما جاء بكتابه[1] بقول المذكور: ولما ازدادت الأحوال في سورية خطورة، رأى الجنرال غورو قائد الجيوش الفرنسية في شرق البحر المتوسط أن يوجه إليها جهوده الحربية، فاضطر بعد انهزام جيوشه أمام ضربات الأتراك القاصمة لعقد الهدنة المعروفة مع الأتراك،((وبرز إلى ميدان المناضل الوطني الوجيه المعروف مصطفى إسماعيل، فأرادوا القضاء عليه بعد أن ينسوا من إغرائه ومماشاته لسياستهم الاستعمارية، وحضر إليه قادة الثورة وهم السادة عمر البيطار، وإبراهيم أبو سليمان الجندي وشحادة زكريا وعبد الرؤوف طيبا[2] والحاج مصطفى المجبور ومحمد عبد الجليل ومحمود عطور وأحمد كلية ومحمد خليل البيطار، وتداولوا في الوضع الراهن، وقرروا التمهيد للثورة، والقيام بالحركات الثورية يحتاج إلى سلاح وعتاد وهم بأشد الحاجة إليه آنئذ، فتوجه هؤلاء القادة إلى حلب للاجتماع بزعماء حلب وضواحيها، وكان ذلك في بدء عام /1919/م، وفي طريقهم التقوا بقوة من الجيش الفرنسي حاولت القبض عليهم، فنجوا من الشرك بأعجوبة، وعادوا أدراجهم، وقبل وصولهم إلى قرية (بابنا) –وهي المركز الرئيسي لعشيرة صهيون[3] - تقابلوا مع قوة "فرنسية" وأطلقت النار عليهم، وكان ذلك سبب اندلاع ثورة صهيون، وما أن سمع رجال عشيرة صهيون أزيز الرصاص حتى تجمعوا وشاع الأمر بين أهالي

---

[1] كتابه الموسوم بعنوان تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الإتحاد، شارع رامي، دمشق960 ، ص14

[2] الأصح محمد عبد الرزاق طيبا وليس عبد الرؤوف طيبا أما شحادة زكريا فهو من قرية بكاس، وهو من قادة ثورة صهيون وأركانها البارزين، أصيب بجرح في كتفه الأيمن في معركة جبل شان واستمرت معالجته مدة سنة ورجع إلى بلده بعد العفو العام ولقي مضايقات ومضايقات كثيرة من الفرنسيين (أدهم آل الجندي تابه ص23).

[3] لم تكن عشيرة بل مجتمعاً

القرى، فاندفعوا للنجدة مستعدين للقتال، ودارت رحى أول معركة عنيفة، اندحرت فيها القوات الفرنسية وتشتتت وانتشرت الفوضى بين صفوفها، فقتل وأسر منها عدد كبير، وغنم الصهاونة سلاحاً وعتاداً وافراً)).

ويمضي السيد أدهم آل الجندي في قوله: ((لقد أثر هذا الانكسار المريع على نفوذ الفرنسيين إذ ذاك، وكانوا ما انفكوا يبذلون أقصى جهودهم لتوطيد دعائم نفوذهم في هذه المنطقة، فأرادوا تغطية هزائمهم، فجهزوا حملة كبرى بقيادة المقدم (سيار) للانتقام وإخضاع هذه العشيرة بالنار والدم، ولما اتصل خبر هذه الحملة بمجاهدي صهيون أولي البأس والشدة، أسرع قادة الثورة بإيفاد الرسل إلى القرى وإلى وجهاء المسلمين العلويين الذين اشتهروا بالوطنية والمفاداة، - منهم أسعد ميلي وأسعد كنجو ومحمد خليل من قرى طرجانو والمزرعة والجنجانية – وحثهم على قطع طريق الحملة الزاحفة وصد هجومها ومنع دخولها إلى قرية (بابنا).

وقد توجه هؤلاء الوجوه إلى موقع نهر طرجانو لدعوة أتباعهم والتحصن بالهضاب وتوزيع الكمائن في المواقع المنيعة للإنقضاض على الحملة القادمة وإفنائها، وفي هذه الفترة الرهيبة تدخل أحد أعوان الاستعمار -ترجمان حاكم اللاذقية الفرنسي - للإيقاع بين صفوف المواطنين، فأبى النبلاء الثلاثة الانصياع إلى مكائده، وصدوه أشنع صد، ثم زحف الجيش الفرنسي إلى (بابنا)، وتوقف على أبوابها بضعة أيام خوفاً من انقضاض المجاهدين عليه، ودارت معارك بين الجانبين أسفرت عن احتلال الجيش لـ(بابنا) دون أن يتمكن المجاهدون صده، واضطرت عشيرة صهيون إلى مسالمة الجيش المحتل ريثما يتسنى لها جمع شملها مرة أخرى)).

((في هذه الآونة الحرجة توالت الحوادث والوقائع تجري سراعاً، فطالب الفرنسيون برأس قادة الثورة، وهم السادة أحمد البيطار من قرية (شير القاق) وإبراهيم أبو سليمان الجندي من الحفة وشحادة زكريا من قرية (بكاس) -وهو شقيق زوجة الوجيه

مصطفى إسماعيل - وأحمد كلية من قرية (الزنقوفة)، وفي حالة عدم تسليمهم هددوا بتدمير قرى منطقة صهيون، وتلافياً لخطر الإبادة رضي القادة بالاستسلام حرصاً على سلامة النساء والأطفال من الفتك والهلاك، وما أن صار هؤلاء القادة في قبضة الفرنسيين حتى زُجّوا في السجن مدة سنة لقوا خلالها أشد أنواع التنكيل)).

((ولقد تأثرت عشيرة صهيون بامتعاض للمصير المحزن الذي حل بزعمائها الذين آثروا فداء عشيرتهم بأرواحهم حقناً للدماء والدمار، وظنوا أنهم امتلكوا ناصية الأمر وقضوا على الروح الوطنية بعد استسلام فريق من زعماء العشيرة ولم يدروا أن زج قادتها، قد ألهب حماس هذه العشيرة المجاهدة التي اشتهر رجالها بالبطولات النادرة، وما لبثوا حتى هاج ثائرهم وتعاهدوا على مجالدة الفرنسيين ولو أدت النتائج إلى فنائهم وتدمير ديارهم)).

((عمد الفرنسيون إلى اتخاذ الحكمة والبداية في الأمر، والسير بسياسة رشيدة حكيمة، غير أن ما به من الحمق والحقد، وعدم الإدراك في مجابهة الحوادث -كما اثبتوا ذلك في جميع مواقفهم - كل هذا مما دعا إلى التعقيد، فازدادت الثورة ضراماً وساء المصير)).[1]

وعلى أثر هذه الحوادث تولى المجاهد الكبير المرحوم عمر البيطار قيادة الثورة يساعده في إدارة حركاتها نخبة من الأبطال أمثال الشيخ أحمد إدريس وصبحي حليمة وحسن سعدية وغيرهم، وهب مع رجال عشيرته الأشاوس لمنازلة القوات الفرنسية التي يقودها المقدم (سيار) فكان في كل يوم اشتباك والتحام و معارك متواصلة، كان أشدها المعارك الضارية التي دارت في مواقع (الرستن) و (خان عطاء الله) ومني الفرنسيون فيها بخسائر جسيمة، في هذه الفترة العصيبة اشتدت حاجة المجاهدين للسلاح والعتاد، فأوفد قادة الثورة بعض الرسل لمقابلة المسؤولين لمدهم

---

[1] المرجع السابق

بالسلاح والذخائر من حلب و دمشق، ولكن ويا للأسف عاد الموفدون من حلب بخفي حنين.

واشتدت أوزار المعارك المتوالية ضراوة وضراماً، فالتقى المجاهدون بالقوات الفرنسية في أراضي قريتي (الصمنديل وبزفت)، ودارت رحى معركة طاحنة تكبد الفرنسيون فيها ضحايا كثيرة، واستشهد فريق من أبطال المجاهدين كان منهم الشهيد صبحي شيخ خميس، وانتهز الفرنسيون فرصة احتلالهم لـ(بابنا) فأزمعوا القضاء على الوجيه المرحوم مصطفى إسماعيل الذي قض مضاجعهم بوطنيته الصلدة، فحاصرت قوة كبيرة بقيادة المقدم (سيار) بيته وأحاطوا به، واستمر الحصار حول بيت الزعيم مدة عشرة أيام كان المجاهدون خلالها يتأهبون لعمل حاسم، وفي اليوم الحادي عشر هاجم المجاهدون القوة الفرنسية بهجوم مباغت، والتحموا معها بالنار والسلاح الأبيض، وجهاً لوجه، وأسفرت المعركة عن تدمير القوة الفرنسية عن بكرة أبيها، فخرج مصطفى إسماعيل من بيته واجتمع بوجوه العشيرة وقرروا مهاجمة الجيش المرابط في ثكنات (بابنا) العسكرية.

((بعد منتصف ليلة الثالث من شهر آذار سنة /1919م/ تجمع المجاهدون من جميع ضواحي مركز قضاء (بابنا) آنئذٍ، وتمنعوا في موقع "الكتف" فوق (بابنا) بقوة بلغت أكثر من ألفي مسلح، ثم انقضوا على الثكنات العسكرية في الظلام الدامس بهجوم صاعق، وكانت معركة ضارية هائلة استمرت حتى مطلع الشمس، وأصيب الجيش الفرنسي بأفدح الخسائر في الأرواح و السلاح، وغنم المجاهدون كميات هائلة من السلاح والعتاد، وعدد وافر من الخيول والبغال، وخسر الثوار زهاء (خمسين شهيداً)، وعقب هذه المعركة اجتمع مصطفى إسماعيل بالوجيه المعروف السيد عبد الواحد هارون في اللاذقية وتداولا في شؤون الثورة، وفي اليوم الثاني لاجتماعه عصفت المنية بروحه الطاهرة فجأة في يوم السبت العاشر من شهر آذار سنة /1919م/، ورأى الفرنسيون في موت هذا الوطني المخلص أكبر فرج حققوا فيه آمالهم وأهدافهم الاستعمارية)).

- معركة بابنا والجنكيل الفاصلة -

((تبعد بابنا ثلاثين ميلاً من اللاذقية شرقاً فتوالت إليها النجدات العسكرية من ساحل اللاذقية، وفي السادس عشر من شهر نيسان سنة /1919م/ هاجم ألف مقاتل من مجاهدي صهيون حاميات (بابنا) الموكل إليها مراقبة الأمن في منطقة صهيون، وكانت تشتمل على كتائب من جنود الرماة الجزائريين التابعين للفيلق الثالث المختلط، ومن المتطوعة وقوة من مرتبات الدرك برئاسة الكابتين (ماغران فرنرة) والملازمين (كورتو ولغال)، وقد حاصر المجاهدون هذه الكتائب الفرنسية وصمدت سبعة أيام أمام هجمات الثائرين التي تناهت في العنف، وكان قائد الكتائب آنئذٍ الكابتن (ماغران فرنرة) في قرية (الجنكيل) فحاصره المجاهدون في بيته، وكان على وشك الاستسلام لمجاهدي الصهاونة، وقد حاول المجاهد المغوار (حسن طه) من قرية (بابنا) الدخول إلى بيته بعد أن فتح ثغرة في الجدار، ولكن الجند عاجلوه بالرصاص، فخر شهيداً، وفي هذه الفترة العصيبة التي مرت على القائد المحصور، أتت قوات الاستعمار، واستطاعت إنقاذه من التطويق والهلاك المحقق)) [1].

((وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان سنة /1919م/ أقبلت نجدة فرنسية مؤلفة من عشرة آلاف جندي فقامت بإنقاذ الكتائب المحصورة في (بابنا) من الهلاك)).

هذا وأشير إلى أن المعركة الفاصلة القائمة على أساس زج الفرنسي كل قواته، هذا الأمر سبق بعمليات جزئية كانت تدور في الأزقة وكثيراً ما كان الطرفان يلتحمان بالسلاح الأبيض، وبقيت هذه المناوشات مدة شهر، وكان مركز الثوار في حارة الجندي (في الجنكيل)، وكان مع الثوار القائد التركي عاصم بك واشتهر

---

[1] المرجع السابق ص 5

في هذه الملاحم المرحوم سعيد زريق وشقيقه المرحوم خليل زريق.

هذا ما يتعلق بمركز القضاء بابنا والجنكيل أما ما يتعلق بقرية شير القاق، فقد أصيبت هذه القرية وسواها بنار العدو، إذ نصب عليها المدافع في رويسة طبش[1].

هذا هو النص الحرفي لنص الأستاذ آل الجندي الممتلئ بالمعاني التي يمكن اعتبارها مفتاح التاريخ الحدثي موضوع بحثنا والقوام الأساس والهيكل الذي اعتمدناه -كحدث - في أثرنا، مع أننا لا نشك بمثقال ذرة من حسن نية الكاتب وصدقه إلا أن المظهر السردي في تعليل الأحداث جاء مبتسراً لاوياً عنق الموضوع فكانت النتيجة مجتزأة، وتحتاج إلى الإيضاح، وهنا كان لا بد من توجيه الملاحظات الآتية:

1 - هنالك انقطاع في مجرى السرد الحدثي، فبعد الانتهاء من الجملة المتعلقة (بغورو) وعقده الهدنة مع الأتراك، بعد ذلك جاءت مباشرة العبارة المتعلقة بالمرحوم مصطفى إسماعيل متضمنة بالحرف الواحد: ((وبرز إلى ميدان النضال الوطني الوجيه المعروف مصطفى إسماعيل، فأرادوا القضاء عليه بعد أن يئسوا من إغرائه ومماشاته لسياستهم الاستعمارية، وحضر إليه قادة الثورة، وهم السادة عمر البيطار إلخ...))، فهنا نلاحظ التعليل التاريخي الخطي الانفرادي، فحادثة المرحوم مصطفى إسماعيل هي التي حركت الموضوع، وبالتالي فأين هي الأحداث التي سبق الإشارة إليها، "مثل مقتل النقيب الفرنسي في اليوم الثالث من وصول ودخول الفرنسيين اللاذقية – المعركة قرب جسر نهر الكبير ومقتل كل المجاهدين المهاجمين هجوم حسن طه وزريق الحفيان على ثكنات الزقزقانية الخ....)).

فالنص السابق يوحي بأن إرادة غورو وسياسته هي المحركة للأحداث في سوريا، ولثورتها ومنطق العقل والتعليل التاريخي يدفع بنا أن نتساءل عن هذا السبب الخاص الذي حرك الثورة في دمشق وجبل الدروز وحماة وفي منطقة الشيخ صالح العلي.

---

[1] رواية الفاضل محمد شاكر ياسين من قرية شير قاق

ثم إن هذا التعليل الخطي الانفرادي هو الذي أظهر المرحوم مصطفى إسماعيل كإرادة مباشرة محركة للتعليل التاريخي، بمعنى أننا لا ننكر دور المرحوم المذكور، لكننا لا نعتبر هذه الشرارة كل شيء في الاشتعال.

2 - إن كل تعليل لثورة منطقة صلاح الدين على أساس ربطها بحدث انفرادي أو بشخص أو عائلة تفسير خاطئ -وهذا هو الخطأ في منهج آل الجندي - ومن هنا جاء الخطأ في تصوره للمنطقة، وكأنما سكبت سكباً وأفرغت إفراغاً (حسب تعبير الجاحظ) من قبل رجل واحد، وبالتالي فهذا التعليل هو الذي قاد إلى التفسير الخطي الانفرادي وإلى إبراز شخص واحد، وإلا كيف نفسر حادثة مهاجمة حسن طه للفرنسيين في اللاذقية (الزقزقانية)، ثم كيف نفسر مقتل الشهيد البطل علي صبحي شيخ خميس في الصمنديل وبزفت.

3 - نخلص من ذلك للقول بأن منطقة صلاح الدين (صهيون سابقاً) لم تكن اجتماعياً في طور العشيرة، بل تجاوزت ذلك ووصلت إلى طور الشعب حيث قام هذا الشعب على العديد من الأسر ذات الأصول المختلفة، ولم تكن هنالك إرادة واحدة سياسية أو اجتماعية تضبط جزيئات الثورة وذلك قبل القرار الجامع في بيت المرحوم مصطفى إدريس، هذا القرار الحاكم الكلي الذي رتب النتائج النهائية فانبرت المنطقة إلى الالتزام به.

والخلاصة هنالك قرار جامع مانع اتفق عليه هو قرار الثورة الذي صدر في بيت مصطفى إدريس، وما عدا ذلك فقد كانت هنالك تصرفات فردية حازت على الرضا الضمني لشعب المنطقة المؤلف من أسر متعددة تميزت بالشجاعة النادرة، وهذا القرار الجامع الصادر عن الأسر، وهو الذي يفسر عدم الخروج على ذلك من أي شخص أو الخيانة من طرف، وبالتالي ليس القرار الفردي المنسوب إلى هذا القائد أو ذاك هو وراء الأحداث ومجرياتها، ،وإنما نحن حيال رواسب عامة تراكمية فجرت الثورة النبأ العظيم.

وحسب توصيفنا وتكييفنا للثورة، فهي عمل جماعي شعبي أقرب ما يكون إلى الانفجار العام وتعبيراً عن الديمقراطية المباشرة الشعبية.

- الدفاع الاجتماعي والذود عن النفس بالخروج والثورة -

هكذا تبدو مبررات ومسوغات الثورة والخروج دفاعاً عن النفس والأرض والعرض، قال تعالى: ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير... الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات يذكر فيها أسم الله كثيراً...)) /الحج/آية40/.

فمنطقة صهيون كانت -ولا تزال - تؤمن بالله العزيز القدير وتعلي ذكره على كل منبر وصعيد وفجأة جاء المستعمر ليصفي حساباته مع الأمة والحضارة والتاريخ وصلاح الدين الأب الروحي للمنطقة.

لقد وقع بين يدي كتاب سطر بالفرنسية يتكلم عن منطقة صلاح الدين، وقد جاء بالحرف الواحد ما يلي: Les sohyiounois, a l'origine arabe, et qui dessendraient duise lievtenont de Saladin.

والأرجح أن جمهرة "سكان" منطقة صلاح الدين حدثت بفعل تراكمي ابتدأ سامياً مكوناً القاعدة السكانية، ثم كانت الفتوحات الكبيرة "اليونانية والرومانية" مجرد تراكمات ورواسب بسيطة لأن الفاتح الأجنبي لم يكن يهمه إلا أن يكون حاكماً، في مركز القضاء، ثم كان الفتح العربي الإسلامي فاعتنق السكان الأصليون الساميون الدين الإسلامي، ثم كان البطل صلاح الدين الأيوبي، فخلق هذا الفتح تراكماً سكانياً كبيراً مما حدا النص الفرنسي السابق -بشكل حاسم - للقول بأن السكان ينحدرون من قائد لصلاح الدين كما تشير إليه الوثيقة السابقة...

ومنذ ذلك التاريخ والمنطقة تحمل هذا الاسم، بل إن التسمية ظهرت في النصوص الإدارية الرسمية[1].

والسؤال المطروح هو: أليس ذلك مبرراً كافياً للخروج والذود عن حياض الوطن والعقيدة؟.

نسخة اصلية عن النص الفرنسي

---

[1] راجع في ذلك تاريخ اللاذقية للأستاذ هاشم عثمان ص108، وقد أشار المذكور إلى أن قضاء صهيون يتألف من التسميات الآتية: "نواحي صهيون – جبل الأكراد – بيت الشلف ودريوس ومركزها بابنا"

- القتال في أزقة القرية -

اشتعلت نار الثورة، وهرع المجاهدون من كل حدب وصوب من أرجاء المحافظة، واتخذوا حي (حارة الجندي) موقعاً لمكافحة العدو، وهذا الحي يقع في مكان مرتفع من قرية الجنكيل، وكان يترأس هؤلاء الثوار قائد تركي أسمه (عاصم بك)، وكان يساعده بعض الثوار السوريين: أمثال الساطور وسعدية وخيرو القصاب من اللاذقية وصبحي حليمة من الحفة وأسعد طربوش من الحفة أيضاً.[1]

لقد استمر القتال عدة أيام وفجأة انسحب القائد التركي عاصم بك، والأرجح بقرار من دولته التي اتفقت على وقف القتال مع الفرنسيين في الأناضول، وفضلاً عن ذلك فقد كان وطيس الحرب ضارياً، وبلغت ذروته في الالتحام المباشر بالسلاح الأبيض بين المتحاربين، حيث أظهر أبناء القريتين (بابنا والجنكيل) مواقف مشرفة لم يشهد لها التاريخ، ولا يمكن أن يصدقها العقل، وبالتالي فهل يقبل العقل أن تسعة أشخاص من الفرنسيين اعترضوا المرحوم مصطفى رشيد درويش (هو ابن عم والدتي وإني أعرفه تماماً، وكان طويل القامة مفتول الذراعين)، فزمجر ورفع صوته ليقول إن المؤمن يستطيع مجاهدة عشرة أعداء، وأنتم تسعة فالنصر لي بإذن الله، وفعلاً تحداهم ولم يكترث بهم.

وحدثني أخي الفاضل خالد زريق أن عمه المرحوم سعيد زريق ألتحم عدة مرات مع الفرنسيين في المعركة الطاحنة في القرية وكان ينزع حذاءه ويهاجم الفرنسيين وقد عاد عدة مرات من مهمته القتالية والدماء تصبغ أقدامه.

---

[1] يؤكد الباحث ادهم آل الجندي (كتابه ص 74 و 139) أن سعدية وصبحي حليمه من اللاذقية، ولا شك أن سعدية من اللاذقية، أما صبحي حليمة فهو من أسرة عريقة في الحفة وكان بطلاً مغواراً اشترك مع الزعيم هنانو في معركة مكسر الحصان الرهيبة التي حدثت في 921/7/16 و* من التطويق والقتل وقد حكم بالإعدام و نزح إلى تركيا وعاد إلى وطنه بعد العفو.
أما خيرو القصاب المشهور باللاذقاني فهو من أهالي اللاذقية وترأس قوة مؤلفة نم خمسة عشر مجاهداً * في ثورة هنانو ولقد اجتاز مع الزعيم هنانو البادية واشترك في معركة مكر الحصان في جبل البلعاس الواقعة في 921/7/19 ولم يستسلم للفرنسيين، وفي عام 943 غرر به أحد رجاله، فقتله وهو نائم (أدهم آل الجندي كتابه تاريخ الثورات السورية من عهد الإنتداب الفرنسي ص138).

- الخروج من الدار والهجرة -

وبعد القتال العنيف غير المتكافئ بين جيش مدجج بأحدث الأسلحة، قرر أهل القرية النزوح مؤقتاً عن الدار على أن يؤوبوا "ولا أعلم السبب"، وهنا تساءلت وسألت لمَ لمْ يأخذوا المرضى؟ فكان الجواب سيعود المرحوم عابدين درويش –على سبيل المثال - ليأخذوا ابنته المريضة التي اضطر لتركها والأبنة المرحومة "فريدة" هي شقيقة والدتي وزوجة عمي المرحوم محمود زريق، وقد كانت عروساً لما يمضي على زواجها إلا أيام، وكانت بارعة الحسن والجمال، كما ترك شخص طاعن بالسن من آل السعيد "الجنكيل" وكان المصير الأسود الغاشم للشيخ الطاعن وللشابة "حسب ما رواه لي المرحوم يحيى السعيد".

زد على ذلك فالمستعمر أشعل القرية بالنار، ولقد شاهدت بأم عيني آثار الحريق، كما شاهدت الرصاص في جدران جامع بابنا، وهذه الآثار لا تزال موجودة حتى يومنا هذا.. وتوضيح ذلك أن المستعمر أحضر مدافعه ونصبها في مكان قريب وملاصق لقرية بابنا على الشاطئ الثاني من النهر والواقع غرب هذه القرية.

حيال هذا الوضع الغشوم كان لا بد من النزوح ليلاً، حيث اضطر الأهالي إلى التوجه من الجهة الجنوبية من القرية عبر النهر لأن العدو كان قد اقام حامية عسكرية في تلال منطقة الخلوف المسيطرة على الجهة الشرقية من القرية، وهذا يعني الحصار لأن قريتي بابنا والجنكيل محاطتين من الجهة الشمالية والجنوبية بواديين عميقين يتعذر اجتيازهما.

هكذا تحددت الهجرة من الجهة الجنوبية لا سيما أن هذه الهجرة لا يمكن أن تكون إلا إلى ديار الأكراد، الأهل والأقرباء والخلان والأصحاب والعشيرة التوأم تاريخياً واجتماعياً.

لقد كانت الهجرة إذن من الجنوب، وهذا يعني اجتياز نهر الزرندة الذي أشرنا إليه، وهذا النهر "عميق جداً ومنحدر لا سيما في فصل الشتاء، وقد بقي النازحون طيلة الليل ليصلوا إلى الضفة الأخرى من النهر، وذلك بسبب قساوة الشتاء، وكان وابل

الرصاص ينهال عليهم[1]، وقد روت لي المرحومة والدتي أنهم كانوا يدبون على أيديهم، حيث لا يسمح لهم أن يشعلوا أعواد من الثقاب، وبينما كانت بهذه الحال من الدبيب اصطدمت بجثة رجل، و تبينوا الأمر على ضوء اشتعال عود ثقاب، فكان جارهم المرحوم مصطفى محمود قتيلاً بفعل رصاص العدو، وطبعاً فما كان باستطاعة المهاجرين حمل القتيل بل ترحموا عليه وتركوه.

وأخيراً وصل النازحون ديار الأكراد (دار الهجرة)، حيث أتاح الأكراد لهم كل شيء: وجدانهم وقلوبهم وسواعدهم وأرزاقهم وحمايتهم، لذلك لا يمكن تكييف وتوصيف فعلهم هذا إلا أنهم شركاء في الثورة، لأن الثورة تعني بذل منتهى القدرة والإمكانات والسعة، والأكراد الأشاوس الأحباب قدموا ما في استطاعتهم أن يقدموا لا سيما أن الحرب لا تبتدئ وتنتهي في ساحة القتال، بل تمتد إلى ما بعد القتال...، وقيل القتال، يقول الشاعر النعمان بن عجلان الأنصاري:

وقلنا لقوم هاجروا مرحباً بكم:

أهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقر،

نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجذور على السفر[2]

والخلاصة لا يمكننا التحدي والقول بأن ثورة صهيون كانت بسواعد أهلها فقط وإنما بالظهير والحاضنة والتوأم (الأكراد)، ولعل الثورات الكبرى فازت وانتصرت بهذا الظهير، وأي منا لا يعجب لمقالة الزعيم ماوتسي تونغ: ((اضرب واهرب)).

فالهرب الموظف المبرمج الذي يحيكه العقل وترسمه الغاية هو من صميم إستراتيجية القتال.

إذن فالصهاونة لم يهزموا، وإنما اعتمدوا بعداً جديداً لاستئناف القتال والاستمرار به، فما هو هذا البعد والمظهر الجديد؟

---

[1] يراجع في ذلك كلمة المرحومين المحاميين عبد العزيز أرناؤوط وتوفيق هارون في حفل التأبين

[2] الاصابة 153/3 ، القاهرة /1939م/، الاستيعاب ص298

- دار الهجرة -

والنازحون المهاجرون، وإن هاجروا دفعة واحدة تحت رحمة ظرف واحد، إلا أنهم توزعوا في جبل الأكراد -ومركزه سلمى - على أقربائهم وأحبابهم، مما مكنهم من تنويع أساليبهم القتالية، وهذا يذكرنا بحضانة الأنصار في المدينة المنورة للمهاجرين أصحاب "رسول الله".

واستطاع الثوار بعد تأمين عائلاتهم اجتياز مرحلة جديدة والانقضاض على العدو ثأراً لكرامتهم وكرامة الوطن الأم.

- الأسلوب الجديد للقتال -

إذا كان القتال في قرية بابنا والجنكيل التحامياً استعمل فيه أحياناً السلاح الأبيض، فهذا القتال كان -وعلى عنفه - مدعواً لتغيير أساليبه ووسائله وظروفه، إذ أخذت الثورة على عاتقها إتباع أسلوب جديد في الحرب هو الكر والفر (اضرب واهرب) والخداع والمناوشة، والحصار وإعاقة العدو وقطع الطرق عليه، وغير ذلك من أساليب الحرب الشعبية (حرب العصابات).

وتتميز هذه المرحلة بأن أداتها كانت مؤلفة من مجموعات متتالية، كل مجموعة تضم مقاتلي العائلة الواحدة[1]، أو عدة عائلات، ولم يكن هنالك قائد عام يقود المعركة ويخطط لها، لكن ذلك لم يكن ليمنع وحدة القتال كما هو الحال في احتلال جسر الشغور وتولى أحد أبطال الثورة الإدارة، ولعلنا نضرب مثلاً على الأسلوب الجديد للقتال في اتحاد آل زريق وآل مدنية بزعامة المرحوم البطل المدنية، ويمكن القول إن أهم أحداث هذه المرحلة يكمن في الآتي بيانه:

---

[1] كنا ذكرنا سابقاً أن مجتمع صهيون قطع مرحلة العشيرة، وهذا صحيح لكن العائلة تعيد سيرتها الأولى إبان الحرب بصفتها عنصر الحماية الوحيد

1 - موقعة بلاطة سترية -

كانت الغارات والهجمات التي ألحقت بالعدو سبباً للتفكير في إخماد الثورة واقتلاعها من جذورها والقضاء عليها في دار الهجرة، وكان أن هيأ العدو حملة كبيرة منقولة على العربات محمولة على البغال والمجهزة بالمدافع والبنادق والرشاشات واتجه إلى منطقة الأكراد، وكانت خطته حرق قرية دورين -وهي القرية الأولى في الأكراد والملاصقة لجبل دريوس - ومعلوم أن هذه القرية لم تكن هدفاً لهجرة الصهاونة بسبب انفرادها عن جبل الأكراد بواسطة نهر صغير وتعتبر فاصل بين منطقة الأكراد وقرية دورين وتعد جغرافياً من منطقة دريوس.

لقد وصلت حملة الفرنسيين إلى بلاطة سترية على الطريق بين صلنفة ودورين، ولكن على مقربة من دورين سمع -بصورة متأخرة - المجاهدون الخبر فهرعوا لتدارك الأمر وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتمكن ثلاثة عشر مقاتلاً أن يصلوا إلى التل المرتفع في كفر دلبا، وكان هؤلاء من الصهاونة ومن أبطال الأكراد، ولعل أبرزهم المرحوم المجاهد الكبير (نوري بازيدو)، وقد يسر الله لي مقابلته فشرح لي تفصيلات المعركة، وكيف أن المجاهدين أعتلوا واعتصموا بمرتفعات كفر دلبا، وكفر دلبا هذه أقرب القرى إلى دورين وسلمى ونظراً لأهمية معركة (بلاطة سترية)، فقد أتيح لي زيارة موقع المجاهدين واطلعت على أهميتها الطبيعية، فهي تقع في مكان شاهق أمنع من عقاب الجو، وتشرف بالكامل على المنطقة، وتتحكم بها وتحيط بها إحاطة السوار بالمعصم.

ومن أعلى مرتفعات كفر دلبا يتيسر لك رؤية منطقة الأكراد بكاملها حيث توحي لك بالأسباب التي حدت تاريخياً السلطات لتمكين هجرة الأكراد إلى هذه المنطقة ليكون بيدهم مفتاح الجبل وأداة الاستقرار والأمن فيه.

وقد فوجئت الحملة الفرنسية الكبيرة بالرصاص ينهال عليها ودب الذعر في صفوفها، ولم يكن بالإمكان قتل بطل واحد من الثوار المتحصنين أمنع تحصين، هذا فضلاً عن أن المساعدات كانت تنهمر وتصل إلى المجاهدين وتزيدهم إيماناً وقوة على

إيمانهم، وأمام هذا الوضع ما كان أمام الحملة العسكرية الفرنسية إلا أن تُنكب بأسوأ هزيمة، ليمتلك بالمقابل جبل الأكراد العزم والنشوة والثقة بالله وبالنفس.

وكان للانتصار في هذه المعركة نتائج حاسمة إذ لم يعد الفرنسيون يفكرون بمعاودة الهجوم على منطقة الأكراد، مما مكن الثوار من الإنفراد بالمنطقة والاستقلال والمنعة، وأتاح لهم الكر على العدو في هجمات متتابعة، كما مكنهم من احتلال جسر الشغور ومساعدة ثورة الجبهة الشرقية بقيادة الزعيم البطل إبراهيم هنانو.

- احتلال المجاهدين الثوار لجسر الشغور -

من المعلوم أن اتساع رقعة المعركة وسعة المجال يكسبها عنصر حيوية وفعالية ملموسة، فهو يذود عمليات القتال، هذا فضلاً عن أنه يحيط ببلدة الجسر عمق من القرى المؤيدة لمنطقة صلاح الدين، كما أن هذه البلدة هي التخم الذي يوصل المجاهدين بالمنطقة الشرقية (حلب)، حيث أمن المفتاح لثورة منطقة صلاح الدين وثورة هنانو، ومن الطبيعي بمكان أن الثورتين المذكورتين بادرتا باحتلال الجسر، وهكذا سرعان ما هاجم ثوار منطقة صهيون البلدة المنوه بها بالإشتراك مع قوات الزعيم هنانو في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ألف وتسعمائة وعشرين وتمكنوا من إخراج الفرنسيين منها بعد معركة طاحنة، وأصبحت هذه المدينة مركزاً للمجاهدين.

وتولى الحاج مصطفى المجبور القائمقامية وعبد العزيز أغا الجندي قيادة درك جسر الشغور[1]، وفي هذه الفترة كان الفرنسيون في اشتباك مع قوى المجاهد الكبير المرحوم مصطفى حسين، فهب الصهاونة وبطشوا بالقوات الفرنسية، وبعد أن أصبحت عوائل المجاهدين في مأمن من الأخطار في منطقة جسر الشغور، اندفع المجاهدون بألف وخمسمائة مجاهد، فنازلوا القوات الفرنسية في

---

[1] رواية أهل الجنكيل تقول أن المرحوم يوسف السعيد هو الذي ترأس مقامية، والأرجح أنها قيادة جماعية، وهذا ما يتفق مع ظروف المنطقة.

معارك ضارية، وقد ثأروا لأنفسهم، وبقي مجاهد وصهيون في جسر الشغور إلى أن قامت ثورة هناتو، فانضموا إليها، واشتركوا في قتال الفرنسيين مع ثوار المجاهد صالح العلي، وكان الوسيط بانضمام ثورتهم إلى الزعيم هناتو ومدهم بالسلاح والعتاد هو المجاهد المعروف هزاع أيوب، وقارعت عشيرة صهيون الفرنسيين في أقضية أنطاكية وصهيون وجسر الشغور والمعرة وأدلب وحماه وتركوش وأريحا وحارم بصورة مستمرة، فكانوا يتنقلون في مناطقها حسبما تقتضيه الوقائع[1] وقد ثأر الثوار منطقة صلاح الدين من الفرنسيين في عدة وقائع واستشهد منهم عدة أبطال من ذلك المرحوم نجيب البيطار الذي استشهد في معركة تل زينب -قرية في إدلب - كما استشهد للمذكور بطلين من أولاده أحدهما في الصقيلبية والأخر في كفرية التابعة لإدلب.

ونشير استطراداً -وهذا دليل على بشاعة فعل المستعمر وخسته - أن، الفرنسيين علقوا المرحوم نجيب البيطار على المشنقة ثلاثة أيام بعد موته[2].

---

[1] أدهم آل الجندي. المرجع السابق ص17

[2] رواية الفاضل محمد شاكر ياسين

التنسيق المشترك بين ثورة منطقة صلاح الدين وشقيقيها الكبيرين ثورة الزعيم البطل إبراهيم هنانو والمجاهد الكبير الشيخ صالح العلي

وهنا ننوه بأن الزعيم هنانو قصد تركيا طالباً المساعدة، فالتقى بالخبير (صلاح الدين عادل بك) قائد الفيلق الثاني التركي، وأسفرت هذه الملاقاة في 1920/9/7/ عن نصرة هنانو ومده دون مقابل بالسلاح والعتاد[1]، وعاد هنانو إلى منطقة الثورة، فأذاع منشوره التاريخي على سكان سوريا الشمالية، أوضح فيه أهداف المستعمرين وإفكهم ومكرهم، فألهب النفوس حماساً، ثم وجه الكلام إلى قناصل الدول، وعزز منشوره بفتوى مفتي الإتحاد الإسلامي الحاج محمد أفندي أبي زاده بضرورة الحكم بقتل من ينحاز إلى الأعداء، ومن يتورط في خدمتهم العسكرية ويقدم لهم المؤن والذخائر.

ولما كان هنانو في تركيا عرض عليه المسؤولون مؤازرته من الضباط والجند وبمدفع ميدان، فرفض آنذاك، ثم رأى من المصلحة طلب المؤازرة المعروضة عليه، فكتب إلى الأتراك يطلب منهم إيفاد هذه القوة والمدفع.

وفي هذه الفترة وصل إلى كفر تخاريم وفد صهيون برئاسة المرحوم عمر البيطار يرافقه السيدان صبحي اللاذقاني وخيرو القصاب وغيرهم للتعرف على الزعيم هنانو ورجاله وللإتفاق على خطة ثورية موحدة، والإتصال بتركيا أيضاً لمؤازرة ثورة صهيون من الزعيم هنانو، وبعد أيام عاد الوفد ومعه عدد من الجنود الأتراك يرأسهم الرئيس بدري الشركسي، وكان مع القوة التركية سلاح وعتاد ومدافع ميدان، وقد استقبلها قائد ثورة الشمال السيد نجيب عويد، وفئة من رجاله الأشاوس، وكان قائد القوة التركية يحمل علماً يمثل الثورتين التركية والسورية الشمالية وذا وجهين، وجه (يمثل العلم العربي، ووجه يمثل العلم التركي)، وقد توسط الوجهين وشاح أبيض مقصّب نقش في الوجه الأول الآية الكريمة: ((إنما المؤمنون أخوة))

---

[1] المرجع السابع ص74

وعلى الوجه الثاني: ((فأصلحوا بين أخويكم)).
وقد اقترح هنانو على قائد النجدة التركية أن يقوم وقواته في جولة عامة لتقوية الروح المعنوية لدى الأهالي في القرى، وفي الجبهة الغربية حيث يرابط الشيخ صالح العلي، وقد سارت باتجاه جبل العلويين يرافقها عدد كبير من المجاهدين السوريين، وفي طليعتهم (عقيل السقاطي) وصبحي اللاذقاني، ومحمد علي عفارة وغيرهم من ثوار مصطفى الحاج حسين في جبل الزاوية، ومرت نحو منطقة جسر الشغور، ثم توجهت إلى قضاء الحفة فقلعة صهيون، قاصدة الشيخ صالح العلي، وأقامت هذه النجدة المؤلفة من مائتي جندي نظامي يقودها بدري بك الشركسي وأزدمير من قادة الأتراك في تلك الربوع بضعة أيام، ثم عادت في طريقها نحو قلعة المضيق، فجبل الزاوية، وجابت قرى نهر العاصي وانحدرت إلى ضواحيه الغربية واشتركت في معارك عنيفة مع الفرنسيين.

وفي 26 تشرين الثاني سنة 1920، أبدى الزعيم هنانو رغبته في مداهمة جسر الشغور واحتلالها لتسهيل الاتصال مع ثورة الشيخ صالح العلي، وكانت المراسلات على اتصال دائم بينهم.

وفي مساء 27 تشرين الثاني اجتمع أمار الفئات من المجاهدين بهنانو في قرية عامودة في قضاء جسر الشغور، وأبلغهم وأوصاهم بتحاشي الأذى للآمنين، وعند منتصف الليل انطلق المجاهدون من قرية عامودة، وعند وصولهم إلى قرب جسر الشغور، علموا بوجود قوة فرنسية ترابط في مزرعة (السيجري)، فأمر هنانو الشيخ يوسف السعدون ورفاقه بمهاجمة القوة الفرنسية، وبقي هنانو وإخوانه في مواقعهم، فأصبحت القوة الفرنسية بين نارين من قوات المجاهدين، فاستسلمت وكان عددها خمسة وعشرين جندياً فرنسياً، وسبعين جندياً سورياً من المرتزقة، وضابطاً فرنسياً برتبة ملازم أول.[1]

---

[1] أدهم آل الجندي المرجع السابق ص 74.
وانظر الباحث فايز قوصرة: الثورة العربية في الشمال السوري، وزارة الثقافة العربية الهيئة العامة السورية للثقافة، دمشق، 2008، ص 74، حيث يشير إلى مذكرات المجاهد

توجه الزعيم هنانو بقواته باتجاه جسر الشغور، وأمر رامي المدفع أن يقذف بعض القنابل بقصد الإرهاب، وتقدمت جماعة معها المجاهد البطل المرحوم عمر البيطار وجماعته من مجاهدي عشيرة صهيون، وقوات جبل الزاوية وقصير أنطاكية، ووصلت قوات المجاهدين على البلدة عند الفجر وطوقتها، وهاجمتها من جميع أطرافها ولم تثن عزائمهم قذائف المدافع الهاون، وأدركت الحامية الفرنسية أن الدفاع لا يجديها نفعاً، فاضطرت إلى التخلي عن جسر الشغور، فاحتلها المجاهدون وأسروا ضابطين وعشرين جندياً، وكان عددها ستمائة جندي أغلبهم من سلاح الفرسان، وأبدى أبطال عشيرة صهيون ورفاقهم تضحيات وجهوداً كبيرة، وكان لهم شرف الفضل في هذه المعركة دون خسائر، وغنم المجاهدون كميات كبيرة من السلاح والعتاد، ومقادير كبيرة من صناديق المواد وكانت من نصيب مجاهدي عشيرة صهيون البواسل، واحتفظت قوات هنانو برشاشين ثقيلين، وبعثوا بالأسرى إلى كفر تخاريم، وتولى الحكم في جسر الشغور عمر البيطار، وأحمد كلية، وشحادة زكريا، وحاج مصطفى مجبور.

وعلى أثر ما حل بالفرنسيين في معركتي السيجري وجسر الشغور من النكبات والهزائم جردوا حملة تتألف من ألفي جندي للإنتقام من المجاهدين، فخرج الثوار من جسر الشغور لملاقاتها، وأمر هنانو فريقاً من مجاهدي كفر تخاريم في مناوشة الحملة الزاحفة ريثما يتم لهنانو تنظيم قواته واستعدادها لمجابهتها، وقد علم الفرنسيون بانسحاب المجاهدين، فرأى قائد الحملة ضرب الثورة في عقر دارها فوجه قواته إلى كفر تخاريم[1].

قامت كتيبة الكابتن (لاروك) في منتصف الساعة التاسعة بهجوم على مواقع المجاهدين، فاستمات الثوار بالمقاومة قتل خلالها الكابتن (لاروك) والملازم (لشين) وواصل الفرنسيون هجومهم على كفر تخاريم المنيعة الجنبات، وتحت وطأة تجريدة

السعدون، وقد جاء بها أن وفد صهيون بقيادة المرحوم عمر البيطار جاء إلى كفر تخاريم وكان يتألف من مائة خيال.

[1] أدهم آل الجندي: المرجع السابق ص75

(بيشون) التي قامت بهجوم من الشمال إلى الجنوب، اضطر المجاهدون للتخلي عن كفر تخاريم وتوغلوا في الغرب.

وأذيع أن الفرنسيين قتل منهم في هذه المعركة أربعة قتلى بينهم ضابطان وتسعة جرحى، والحقيقة أن خسائرهم كانت عشرات الأضعاف.

وفي يوم 11 كانون الأول سنة 1920م، قامت تجريدة (بيشون) على حراسة كفر تخاريم، وانطلقت تجريدة (أبوت) إلى حارم لتأتي بالإمداد، فهاجم المجاهدون العدو في كفر تخاريم فوراً وانسحبوا بعد أن هبطت عليه نجدة فرنسية من حارم.

وفي يوم 13 كانون الأول سنة 1920م، قام الجيشان الفرنسيان بحركات متلاحقة كان يقصد منها جيش المجاهدين المرابط في جبل الدوالي بين "أبو طلحة وكوكو" وإيقاعه بين نارين، وقد شعر المجاهدون بما يضمره الفرنسيون لهم، فانسحبوا، وكانت مؤخرة الثوار تقوم بتأمين الحماية، حيث واجهوا الفرنسيين بمقاومة عنيفة، وكانت قوات المجاهدين تقوم بالهجوم والمقاومة والانسحاب، وقد شحت ذخائرهم، ودب العناء صفوف النظاميين، فاجتاز القائد بدري بك الشركسي العاصي بمعظم قواته وسلك طريق القصير، فرأى الكولونيل "دبيوفر" أن الوقت أصبح ملائماً له لتنفيذ خطته النهائية بأن يدفع المجاهدين إلى الجبل القائم ما وراء العاصي، حيث يتلقاه جيش القائد "دوزاك" الذي كان ينتظر وصوله من اللاذقية.

وفي 17 كانون الأول سنة 1920م، زحف الجيش الفرنسي إلى دركوش على أن يجتاز العاصي، بيد أن الجسر كان منيعاً، وتقوم على حماية ممره فصيلة من المجاهدين استقرت على رأس صخر عظيم متسلط على الضفة اليسرى، فهاجم الفرنسيون الضفة اليسرى واستطاعوا أخذ الجسر.

وفي 18 كانون الأول سنة 1920م، دخل الجيش الفرنسي إلى جسر الشغور دون أن يعترضه معترض، فأقبل زعماء الأكراد وقدموا خضوعهم واستسلامهم.

على أن تلك الحوادث لم تكن لتثني القائد بدري بك الشركسي عن عزمه، إذ ما برح لائذاً بالجبل يعمل بنشاط على استنفار زعماء العلويين وصهيون ويستقدم صفوفاً جديدة من القوات الوطنية تأهباً لاستئناف القتال، وقد قام الجيش الفرنسي بإقامة الحصون والاستحكامات المنيعة في جسر الشغور، وجلب الذخائر استعداداً للطوارئ وتوجيه فصائله لإخضاع المناطق المجاورة.

- الهجوم على جسر الشغور -

وفي ظهر يوم 24 كانون الأول سنة 1920م، طلعت جماعات المجاهدين وبدري بك، وقد استعادت تنظيمها بقوات كبيرة وهاجمت جسر الشغور عند حافة العاصي، وكانت لديها مدفعية وذخائر، ودارت معارك طاحنة فوصل المجاهدون إلى مسافة قصيرة من الخطوط الفرنسية.

وفي 25 كانون الأول سنة 1920م، استأنف المجاهدون القتال على جميع الجبهات.

وفي 26 كانون الأول سنة 1920م، ضاعفوا جهودهم لاحتلال جسر الشغور، ولكن عبثاً فقد دب اليأس والقنوط في صفوف المجاهدين فانسحبوا من جسر الشغور.

ونشير استطراداً إلى أن الصهاونة لم يقيموا سلطة في جبل الأكراد لأن السلطة -كما هو معلوم- ((إطار الوجود الجماعي، ينشأ تحت إلحاح ضرورات النظام الجماعي لخلق التوازن بين القوى المتصارعة ولتحقق بين جماعات الأفراد قدراً من التصالح))[1]، وليس هنالك تناقض بين الأكراد والصهاونة، بل هم طرف واحد يندمج ويتحد في حقيقة واحدة، والأمر يختلف بالنسبة لجسر الشغور البلدة الكبيرة ذات القيم الاجتماعية والاقتصادية المتنوعة والناضجة، ومثل هكذا مجتمع يخلق وجهات نظر متعددة، هذا فضلاً عن أن إقليم جسر الشغور كان موضع تنازع

---

[1] د. طعيمة الجرف: مبدأ المشروعية وضوابط خضوع الدولة للقانون، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، 1973، ط1، ص 38

صدامي تناقضي بين الفرنسيين والصهاونة، ولذلك لا بد من وجود سلطة تلجم النوازع الفردية.

نقطة استطرادية شاردة أخرى تبرز الحاجة إليها، وهي أن مجاهدي الصهاونة احترموا الشرط النسائي (حرمة النساء) كثيراً، فلم نسمع عنهم تعرضهم قط لعفاف امرأة معادية.

وبعد هذا الانقطاع لصالح الاستطرادية نعود إلى متابعة سير المعارك من النقطة التي وصلت إليها فنقول:

لقد قررت الحملة الفرنسية تحت وطأة هجمات المجاهدين تبديل وجهة سيرها، فاتجهت نحو منطقة صهيون، وقد بلغت المجاهدين أخبار هذه الحملة، فاستعدوا لها، واستمرت الاشتباكات بين الفريقين مدة ثلاثة أيام تمكن خلالها المجاهد الكبير عمر البيطار وشقيقه نجيب، والشيخ أحمد إدريس، وسعيد كليه وجماعتهم من الانقضاض على مؤخرة الحملة والفتك بها، وغنموا منها مقادير كبيرة من عتادها وأرزاقها، بينما كان يناوشها فريق من المجاهدين، منهم خيرو وصبحي اللاذقاني ورفاقهم.

ولقد أثرت هذه الانكسارات في نفوس الفرنسيين، فراحوا يمعنون بالقرى نهباً وسلباً تأميناً لإعاشتهم، وتنكيلاً وثأراً، واضطرت القوات الفرنسية لاتخاذ موقف الدفاع حيال هجمات الصهاونة، وطلب قائد الحملة موافاته بالعتاد والأرزاق فجهزت القيادة في حلب قافلة مؤلفة من ثلاثمائة وستين جملاً محملة بأنواع المؤن، وعهد إلى فوج من المشاة وسلاح الفرسان لمرافقتها والمحافظة عليها، وقد خرجت هذه القافلة من حلب متوجهة إلى مقر الحملة فوصلت أخبارها للمجاهدين، فبثوا العيون والأرصاد لها، ولما اجتازت نحو الغرب في طريقها إلى جبال العلويين توقفت، وعند وصول القافلة والفوج إلى منطقة الجبل الوسطاني بعث قائد الفوج قوة استطلاعية لتكشف الطريق فوقع رجالها في يد المجاهدين، واتضح أن آمر الفئة المستطلعة كان الملازم الأول وهو ابن الجنرال "غوبو"، وقد اضطر الفوج للانسحاب من أرض المعركة، وكان الظلام الدامس خير معين للثوار في الانقضاض وشن الهجمات الموفقة على الفوج، فلاذ رجال القافلة بالفرار

تاركين وراءهم الجمال والأرزاق والعتاد غنيمة للمجاهدين، وقد تنازل هنانو عن الغنائم والجمال، واختص المجاهدون بالعتاد[1].

وفي هذه الفترة أرسل الزعيم إبراهيم هنانو المجاهد المعروف السيد هزاع أيوب بمهمة من منطقة الثورة إلى اللاذقية، يحمل رسالة من جندي بلغاري وقع أسير بيد مجاهدي هنانو، إلى رفيق بلغاري له في الفرقة الأجنبية الفرنسية، فذهب متنكراً يسوق حماراً يحمل بيضاً وغير ذلك من الأشياء التي تشغل النظر بأنه بائع متجول وقف أمام الثكنة العسكرية، واتصل برفيق الجندي البلغاري وسلمه الرسالة، وقد قبض الضارط خريستو على هزاع أيوب وهدده بالقتل للإقرار بالحقيقة، وكان الضابط قد خشي مغبة الأمر، وأن يكون من وراء ذلك دسيسة تؤدي بحياته، ولما أيقن الضابط البلغاري صدق هزاع أيوب اتفق معه للحاق به مع بعض جنوده في أول الليل، وقد فر الضابط (خريستو) مع عدد من رفاقه البلغاريين، وأتى في الموعد المحدد إلى المكان المتفق عليه، ومعه عدد من البغال المحملة بكميات وافرة من صناديق الذخيرة حيث أوصلهم هزاع أيوب إلى منطقة الثورة، فكان هنانو يعتمد على خبرتهم في المعارك أكبر اعتماد، وقد أبلوا أعظم البلاء في المعارك وفي الشؤون العسكرية، وكان الشيخ صالح العلي قد أسر بعض الجنود من البلغار المتطوعين في الجيش الفرنسي، ولما انحلت ثورته التحقوا بثورة هنانو، وقد استشهد أكثرهم في المعارك.

- نورس طيبا في معرة النعمان -

هو من أبطال مجاهدي منطقة صهيون قد قام بأعمال لم يقدر عواقبها، وانفرد برأيه دون التشاور مع قادة الثورة في توجهه، فقد ارتكبت جماعته النهب والسلب، فكان السبب في نكبة أهلها وتغريمهم الغرامات الحربية، والتنكيل بوجهائها، وسوق فريق كبير من أفرادها إلى سجون حلب، وكان عليه أن يتعظ بتلك النتائج المحزنة فلا يقدم على عمل فيه الإحراج والطعن بأهداف الثورة[2].

---

[1] أدهم آل الجندي، المرجع السابق ص81

[2] أدهم آل الجندي، ص52

وفي أوائل شهر كانون الثاني سنة 1921م، قاد نورس طيبا جماعة من الثوار، وهاجم معرة النعمان، فأنذره أهلها بالخروج منها، والكف عن السلب والتعدي، فلم يرتدع، حتى أن الغرور ساقه لطلب الاقتران بكريمة السيد (مصطفى بلاني) أحد كبار الملاكين والتجار في المعرة، ثم هاجم دار الحكومة، فاحتدمت المعركة بينه وبين الأهالي الذين استماتوا بالدفاع عن بلدهم، وأسفرت عن مقتل المدعو "محمد صالح إبراهيم" وغيره من الثائرين، وإصابة الكثير من الأهالي بجراح بليغة، وقد شدد الأهالي الهجوم عليه، فتمكنوا من التغلب والقبض عليه، وتشتت جماعته فعادوا أدراجهم إلى جبل الزاوية، وقد أبدى الزعيم هنانو استياءه من تصرفات هذا المجاهد، فكتب إلى الوجيه السيد حكمت الحراكي بأمر للتخلص من شذوذه، فسيق إلى حلب مكبلاً، وسلم إلى السلطات الفرنسية، حيث أعدم رمياً بالرصاص.

كان لحادث إعدام نورس طيبا أثره البليغ في نفوس المجاهدين، فقد أتت قوات كبيرة، يقودها القادة (عمر البيطار – مصطفى الحاج حسين – عاصم بك التركي)، وتمركزت خارج المعرة بالقرب من موقع (الأسية)، ثم دخلوا معرة النعمان بقصد الثأر والانتقام لنورس طيبا، وتقابلوا مع الوجيه حكمت الحراكي بطريق قرية (معرة حرمه)، وأراد مجاهدو صهيون التنكيل به، إلا أن المرحوم مصطفى الحاج حسين زعيم جبل الزاوية تدخل في الموقف، وأنقذه من الموت المحقق[1].

وهكذا يبدو جلياً أن هنالك تناقضاً ووجهات نظر مختلفة في الثورة، وكان يجب أن يحسب لها حساب حتى قبل اندلاعها، أي أن توجد مثلاً محاكم ميدانية تقيمها الثورة وتضع أنظمتها وإجراءاتها والمسؤولين عنها، لتواجه مثل هكذا طارئ.

ويظهر أن الثورة لم تتوقع حوادث مثل هكذا حوادث في البيت الواحد النظيف.

---

[1] ادهم آل الجندي: المرجع السابق. ص89

- هنانو في الصقيلبية -

كان الزعيم هنانو ناصباً مضاربه على جسر (العشارنة)، واقتضت الحركات الثورية القيام بتنقلات، فزار قرية الصقيلبية ومعه ولده (طارق) وابنته (نباهت) في منزل الشيخ عبد الكريم الرستم مدة خمسة عشر يوماً.

- حادث الصقيلبية الأول -

في شهر كانون الثاني سنة 1921م، أتى مجاهدو عشيرة صهيون بقيادة عمر البيطار وجماعة من الثوار التابعين لثورة الشيخ صالح العلي ليلاً إلى قرية (الصقيلبية) وكانوا زهاء ألف وخمسمائة مقاتل، فقابلهم أهلها المسلحون بالنار، فلم يستطع المجاهدون من اقتحامها، وجرى اشتباك أدى لمصرع عشرة من خيرة الثوار، كان بينهم عارف بن محمد مصطفى البيطار من قرية شيرقاق وعبدو بن أحمد أبو سليمان الجندي من الحفة، ومصطفى بن زريق الحفيان[1]، من الجنكيل، وحمدو بن عبد العزيز حسون من جبل الأكراد، ورشيد عدرة من الزنقوفة، وأحمد عثمان اصلان من الجنكيل فطوق المجاهدون القرية من جميع جهاتها ولم يبارحوها حتى دفع أهل الصقيلبية خمسة آلاف ليرة ذهبية دية القتلى، وثلاثمائة بندقية، وخمسة وسبعين صندوقا من الذخائر، وعاد المجاهدون إلى مناطق الثورة، وأعاد العلويون بعض الحيوانات المنهوبة بمعرفة الشيخ صالح العلي.

- حادث الصقيلبية الثاني -

في هذه الفترة أتى الطابور التركي ووصل إلى جبل الزاوية، وقام هنانو وقواده بوضع الخطة لاحتلال إدلب، فسار و جماعته إلى معرة النعمان، أما الطابور التركي وقواده عاصم بك وكاظم بك وخالد ناطق بك والضباط مظهر السباعي ورفاقه وعمر زكي الأفيوني، فقد ساروا إلى معرة النعمان فاحتلوها وناموا فيها،

---

[1] المرجع السابق ص89 و المرحوم مصطفى زريق وهو عم المؤلف

واغتصبوا صندوق المالية في دار الحكومة، وكان فيه (1028) ليرة ذهبية وزعوها رواتب على الثائرين، وفي هذه الأونة وردت رسالة من الشيخ صالح العلي بطلب النجدة، فسار المجاهدون من معرة النعمان إلى الصقيلبية للاتجاه نحو جبل العلويين، وكانت القوات الفرنسية ترابط على جسر العشارنة استعداداً للهجوم على (عين الكروم) في جبهة الشيخ صالح العلي.

وصل المجاهدون إلى قلعة المضيق عند الظهر، فأمرت القيادة أن يبق المشاة مع الضباط في قلعة المضيق بضيافة (أحمد آغا الرشيد) وسار الفرسان وعددهم (150) مقاتلاً إلى الصقيلبية لتناول الغداء ثم الإلتقاء ليلاً في الصقيلبية، وفي منتصف الطريق بين قلعة المضيق والصقيلبية خرجت إليهم قوة فرنسية تقدر بمائة دركي ترافقها أكثر من ألفي مسلح من أهالي محردة والصقيلبية، وتصدوا لضرب المجاهدين الذين استماتوا بالدفاع عن أرواحهم تجاه هذه القوة الكبيرة، وقامت القوة التركية بنصب المدافع والرشاشات، وأطلقت المدفعية قنابلها على أهالي الصقيلبية، فلاذوا بالفرار مع القوة باتجاه القوات الفرنسية المرابطة في جسر العشارنة.

وكان الشيخ عبد الكريم الرستم غائباً آنئذٍ عن الصقيلبية، مع عمه الشيخ الياس العبد الله عند وقوع الحادث، كما بدأت المدفعية الفرنسية تصب قنابلها على المجاهدين، وكانت المسافة بعيدة فلم تؤثر بشيء، وعند العصر قام الثوار بنهب (الصقيلبية) وحرق بعض بيوتها، واشترك العربان في أعمال النهب والسلب، واقتتلوا فيما بينهم طمعاً بالمنهوبات، ثم سار المجاهدون إلى الجبل الوسطاني، وعلم الزعيم هنانو ما حل بقرية الصقيلبية من قتل ونهب وسلب، فأسف وتأثر، وحز في نفسه ما قام به القائد التركي عاصم بك ورجاله من أعمال شاذة مخالفة لمبادئ الثورة الشريفة، وقد تذرع الفرنسيون باعتداء الثوار على قرية الصقيلبية المسيحية واتخذوها حجة لتشويه سمعة المجاهدين وغايات الثورة الوطنية، ولو كان الشيخ عبد الكريم الرستم موجوداً آنئذٍ لتدارك الموقف[1].

---

[1] ادهم آل الجندي: المرجع السابق ص54

- إعدام القائد التركي عاصم بك -

كان عاصم بك البكباشي أركان حرب أحد القواد في ثورة صبحي بركات، قد استسلم للفرنسيين ثم ذهب إلى تركية وأقام فيها، وفى إحدى رحلات السيد نجيب عويد إلى تركيا، رغب إليه أحد كبار قواد الأتراك أن يقود عاصم بك قوة تركية لموازرة ثورة هنانو، فتناسى نجيب عويد الماضي وأتى عاصم بك مع قوة تركية، وكان مرتبطاً بإمرة قائد ثورة الشمال السيد نجيب عويد، ولما وقع حادث نهب الصقيلبية، صدف أن كان نجيب عويد في تركية، فاطلع (أزدمير بك التركي) مفتش الثورة، ما قام به القائد التركي عاصم بك من أعمال النهب والسلب، فوافقه على إعدامه[1].

وكانت غاية عاصم بك ورجاله الأتراك ضرب الثورة في الصميم وتشويه سمعتها، والعودة بالإموال والمنهوبات إلى تركيا، وإلباس هذا الجرم بالعرب الثائرين.

عاد السيد نجيب عويد من تركيا، فدعا عاصم بك بقصد حضور الإجتماع في (ملس) فركب مع خمسة عشر جندياً تركياً، وسار مع نجيب عويد الذي كان يرافقه ثلاثة عشر من أبطال المجاهدين، كان بينهم (الحاج درغام ومحمد علي جمعة)، فأمر القائد المسؤول نجيب عويد ثلاثة من رجاله بقتل عاصم بك، فأطلق عليه ست رصاصات في أرض واقعة ما بين (حفسرجة وبسلي)، وكان إعدامه في شهر مارس سنة ألف وتسعمائة وإحدى وعشرين، ودفن بموقع مصرعه.

وبعث نجيب عويد، يخبر جماعة عاصم بك بمقتله، فقام شقيقه وآخر من أقاربه، فأخذوا الأموال المنهوبة وهربوا هائمين على وجوههم إلى الحدود التركية، وقد تأثر رجال عاصم بك لمصرع قائدهم، وكان

---

[1] ولعل هذا التصحيح دليل عمق إحساس وتفكير الزعيم هنانو وتمسكه بالغايات الوطنية الصحيحة لثورته ومع أني لا أعلم ملابسات حوادث الصقيلبية التي قتل فيها ثمانية أشخاص من صهيون، منهم عمي المرحوم مصطفى زريق الحفيان والمرحوم أبو عارف البيطار، لكن حوادث صقيلبية حركت من قبل هنانو ورجال صالح العلي وكان الصهاونة مساعدين لحلفائهم ليس إلا.

عددهم يزيد عن ثلاثمائة جندي، فتخلوا عن الثورة وعادوا إلى تركيا، يرافقهم بدري بك الشركسي القائد التركي المشهور، ولم يبق من الأتراك في ثورة هنانو سوى القائد (ناطق) ومفتش الثورة العام (أزدمير بك) المشهور بغازي عينتاب وأسمه (علي شفيق) وهو شركسي الأصل كان مع العهد الفيصلي في دمشق.

- ذيول إعدام القائد عاصم بك -

على أن إعدام هذا القائد التركي كانت له ذيول بعد سنوات، أدت إلى تشكيل محكمة عسكرية خاصة لمحاكمة السيد نجيب عويد، الذي التجأ إلى تركية بعد انتهاء ثورة هنانو، باعتباره القائد المسؤول عن إعدام عاصم بك، وبعد محاكمته تدخل المارشال التركي (فوزي جقمق) في الأمر، فقررت المحكمة العسكرية براءة السيد نجيب عويد، بالاستناد إلى أن إعدام عاصم بك كان جرى بأمر (أزدمير بك مفتش الثورة التركي).

- تقويم عام لثورة الشمال -

كان لتخلي القوة التركية عن ثورة هنانو، أثر حاسم على مجرى الثورة، وأكبر عامل أدى لوقوع الوهن في الثورة، وتفشي روح التفرقة والإستئثار بين أفرادها وقوادها الأتراك، وانفرادهم بآرائهم دون العمل برأي قيادة الثورة، وبعودة القوة التركية إلى بلادها بدأ الانحلال في ثورة هنانو[1].

هكذا يتضح من أقوال السيد آل الجندي أن ثورة الشمال افتقدت السلطة المركزية القوية التي كانت بمثابة شريان دموي يسري في العروق، ويقوم بالاتساق والتنسيق، ويعطي الأوامر ووجهات النظر الواحدة، لا سيما أن قوام ثورة الشمال يقوم على تحالف (الصهاونة – الشيخ صالح العلي – الأتراك الخ....) ولا بد

---

[1] آل الجندي، ص56 ويضيف الباحث قوصره في كتابه السالف الذكر ص30 أن ثورة هنانو استمرار للحكومة العربية في دمشق، والدليل على ذلك أنه شكل الحكومة في أرمناز وتعاقد مع قائد الفيلق الثاني التركي باسم الحكومة العربية السورية، وقد أعلن الثورة في 1920/9/16، وقسمها إلى عدة مناطق من جملتها صهيون بقيادة عمر البيطار.

للتحالف من فرز الحركات والسكنات المتباينة التي تقتضي قيام آلية التنسيق والترتيب.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو من هو عاصم بك؟

هنا لا بد من إلقاء نظرة سريعة على مجمل حياته.

- القائد التركي عاصم بك 1888/ 1921 -

هو تركي الأصل من بلدة أنطاكية، وابن خالة صبحي بركات، وقد اشترك بثورته في أنطاكية بأمر الملك فيصل وكان برتبة بكباشي أركان حرب في الجيش التركي، ولم يلبث أن استسلم للفرنسيين وأحرج مواقف إبراهيم هنانو بثورته المشهورة ضد الفرنسيين، وكانت أنطاكية آنئذ داخلة في منطقة الثورة، ثم ذهب ومعه عشرات من الثائرين إلى مرعش التركية، وهناك تلقى تعليمات خاصة من صلاح الدين عادل باشا قائد الجيش التركي المرابط على الحدود، ومدير التشكيلات الثورية لمقاومة الفرنسيين في منطقة كيليكية، بوجوب موآزرة ثورة هنانو فأتى يرافق الرئيس بدري بك الشركسي الشاه الأصل، ومعهما مئة جندي تركي مقاتل، ومدافع جبلية، وأربعة رشاشات ألمانية، وقابل ابراهيم هنانو، وأبلغه بأنه يرتبط ورجاله بأمره، وأن القيادة التركية قد بعثت به للعمل في ثورته، ورغم استسلام هذا القائد التركي للفرنسيين، فقد أبلى في قتال الجيوش الفرنسية أعظم البلاء، وقد سولت له نفسه ومطامعه أن يخالف الأنظمة العسكرية وأهداف الثورة الوطنية، فأقدم على ارتكاب أعمال إجرامية أحرج بها موقف المجاهدين وغاياتهم المثلى، وكان سبب نكبة قرية الصقيلبية ونهبها، مما حدا الفرنسيين أن يتذرعوا للدعاية ضد الثورة الوطنية وأهدافها، وكان لعمله هذا أبلغ الأثر في انحلال ثورة هنانو، وقد أعدم رمياً بالرصاص بأمر السيد نجيب عويد قائد ثورة الشمال في موقع بين (حفسرجة وبسلي) وذلك في شهر مارس 1921م.

وبعد إحدى عشرة سنة نقل الأتراك رفاته إلى أنطاكية، وأقيم له تمثال باعتباره أحد أبطال الجهاد التركي.

- روافد الثورة وحضانتها -

جاءت الثورة كما قلنا، تلبية اجتماعية منقطعة النظير للنداء الوطني وصرخة مدوية من أعماق الشعب، وكان إذن من طبائع الأشياء ونسبها المركوزة فيها أن تظفر بتأييد كافة أبناء الشعب العربي السوري في دمشق وحلب وحماه واللاذقية وغيرها، ولقد تعددت صور وأشكال التأييد والدعم والوقوف معها إلى جانبها وسنذكر بالتتالي صور هذا الدعم.

- تأييد ودعم أهلنا في اللاذقية -

ومن الطبيعي أن تلقى ثورة منطقة صلاح الدين الدعم المطلق لسكان اللاذقية الإجماعي، وليس ذلك عجباً فسكان صهيون جزء لا يتجزأ من مجتمع اللاذقية وقطعة من روحها وجسدها، وفي اللاذقية العائلات ذات الأصل الصهيوني، وهنالك ظاهرة الزواج المتبادل بين المجتمعين، هذا فضلاً عن أن منطقة صلاح الدين كانت مصيفاً تؤمه جاليات اللاذقية، وأعظم من هذا وذاك فظاهرة النوبان الطبيعي للحال الصهيونية في الحال اللاذقانية منذ أمد بعيد طويل حيث تدعمت هذه الظاهرة بقوة الحدث التاريخي المعبر عن الأفراح والأتراح، مشاركة للحياة ومقاسمة لحلوها ومرها.

ونحن لا نستطيع أن نسرد كل هذا التأييد والمساندة والدعم، وحسبنا ما جاء ذكره على لسان السيد أدهم آل الجندي في كتابه "تاريخ الثورات السورية"[1]، فقد تعرض إلى بعض الشخصيات في مدينة اللاذقية التي أعطت موافقتها الوطنية وتأييدها ومساندتها لثورة، صهيون، ومن هؤلاء:

المرحوم عبد الواحد هارون[2] "الذي ناصر الثورة وآزرها بماله ونفوذه، وكان الوجيه المعروف مصطفى إسماعيل على

---

[1] ص27 وما بعدها

[2] اشتهر من آل هارون البطل عزيز آغا هارون وهو ابن السيد أحمد خضر هارون ولد في اللاذقية سنة 1868 التحق بثورة الشيخ صالح العلي وألف فوجاً بلغ أربعمائة مجاهد جهزهم بالسلاح والعتاد من ماله الخاص، قدر الملك فيصل أريحيته ووطنيته فكان موضع ثقته ورعايته، لقد صرف هذا المجاهد الأريحي جميع ثروته في سبيل الثورة وحكم عليه وعلى شقيقه الشيخ منح هارون بالإعدام ففر إلى مصر وبقي فيها حتى صدر العفو عنهما

اتصال دائم به عندما شبت الثورة، وكان الفرنسيون يخشون بأسه، فقصدوا الإيقاع والتنكيل به، ومعاكسته في مصالحه الخاصة ورغم كل ذلك فقد كان صلداً متجلداً، لم تلن له قناة".

المرحوم جمال الأزهري: وهو من أسرة الأزهري المعروفة في اللاذقية، وعندما شبّت ثورة صهيون كان قائداً لدرك قضاء الحفة، وقد أبت عليه الكرامة الوطنية البقاء في وظيفته فآثر الإلتحاق بالمجاهدين، وخاض معارك الثورة بأجمعها، وأبلى معها أحسن البلاء كسباً لمرضاة الله دون النظر إلى مصير خدماته التي هي مورد رزقه الوحيد وتأمين معيشة عائلته، فاستحق الخلود.

ولقد التحق العديد من الأبطال بثورة صهيون منهم البطل حسن سعدية والساطور والسلطان والفتاحي[1].

ولقد حدثنا السيد أدهم آل الجندي، عن بعض أبطال اللاذقية المجاهدين الذين اشتركوا في الثورة ولعبوا دوراً فعالاً في إزكائها، منهم:

حسن سعدية[2]: هو من عيون وجهاء اللاذقية ومن أفذاذ المجاهدين الأبطال، اشترك في ثورة صهيون وكان يقود (450) مقاتلاً تميز بالشجاعة والبلاء والتفاني في ميدان الجهاد، لقد تعقبه الفرنسيون، وتآمروا عليه مع أشقياء من الأرمن، فقتل في قرية (بقجه غاز) التابعة لأنطاكية ولم ينجب ولداً.

ويستفاد من رواية الأخ السيد محمد شاكر ياسين أن المرحوم سعدية حارب مع عاصم بك، حيث كان المذكور يقود عشرة مجاهدين من تركيا، وقد اشترك عاصم بك في معركة بابنا والجنكيل، وكان يقود فريقاً من الثوار في حارة الجندي (من قرية الجنكيل)، والحارة المذكورة أعلى منطقة في الجنكيل، وقد بقي الثوار يحتلونها مدة طويلة بقيادة عاصم بك، لكن المذكور انسحب فجأة من ثورة منطقة صلاح الدين.

وعاد إلى اللاذقية ورغم ثرائه فقد أحيط وجميع أسرته بضغط فرنسي مدة طويلة وكان يعيش كالسر في قريته محاطاً بالرقابة وقد عرض عليه الفرنسيون مماشاتهم في سياستهم فأبى وكان الفرنسيون يصادرون محاصيله بأجمعها. (أدهم آل الجندي ص26).

[1] رواية الأخ الفاضل مردم ناصيف من اللاذقية

[2] كتابه تاريخ الثورات السورية. ص26

وروى لي السيد مردم ناصيف من اللاذقية أن المرحوم علي ديب حمادة (من وجهاء اللاذقية) كان يجمع النقود من سكان اللاذقية دعماً لثورة الشيخ صالح العلي وكان ثوار الصهاونة يجتمعون في بيت المرحوم كامل ناصيف كنعان الكائن في حي العوينة، وهو والد الراوي، ولقد أرسلت مساعدة من اللاذقية إلى المجاهد الشيخ صالح العلي والمساعدة عبارة عن /15/ بندقية حيث أرسلت مع المجاهد أسعد طربوش وهو من منطقة صهيون.

وكان البطل المرحوم محمود عطور يجلب السلاح من تركيا، ويضعها في حي الفاروس محل معمل الثلج المشهور، وكان صندوق التبرعات بعهدة المدعو كامل ناصيف، وكان البطل الثائر المتميز في شجاعته وإقدامه المرحوم صبحي حليمة يأتي ويأخذ التبرعات من المرحوم كامل ناصيف كنعان، ولقد داهمت السلطات الفرنسية منزل المذكور وصادرت منه تنكتين ذهب، وذلك بوجود المحامي العام في اللاذقية المدعو محمد يوسف، واعتقل بسبب ذلك السيد كامل ناصيف، ثم أخلي سبيله بمساعدة خوري بوقا.

واستطرد السيد مردم ناصيف قائلاً: كانت النقود تجمع في مدينة اللاذقية، ثم ترسل مع المدعو المرحوم خليل طريفي إلى المرحوم محمود عطور[1] وإلى تركي البيطار، وكان الحامل طريفي لا يتجاوز آنذاك الخامسة عشرة من العمر، وأنهى الفاضل ناصيف حديثه بالقول لقد هاجم الثوار الحامية الفرنسية في جبلة.

وأعود لأكرر القول السابق بأن دراستي هذه هي دراسة إنتربولوجية تفصيلية لمنطقة صهيون بحيث -قدر المستطاع - لا أغادر صغيرة ولا كبيرة بالثورة إلا وأحصيها وأدونها.

---

[1] هو ابن مصطفى عطور مواليد 1885 ومن المجاهدين البارزين في صهيون وأحد أركان الثورة الذين اشتهروا بالتفاني والإخلاص، ولد في قرية دفيل وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام وأصيب بنكبات مادية جسيمة، فنهب بيته وحرقه واضطر شقيقه اسعد عطور للإشراف على أملاك الأسرة، فجاءه المستشار الفرنسي وفرض عليه غرامة قدرها أربعمائة ليرة ذهبية وأوثقه بالأسلاك وأمهله مدة محدودة حتى إذا انقضت ولم يدفعها كان نصيبه الإعدام وقد استنجد بمعارفه فجاؤا إليه بالمبلغ لإنقاذه من المحنة وبعد هجرته إلى جسر الشغور وحضوره معاركها عاد إلى الحفة بعد العفو وقد ترأس رابطة المجاهدين في منطقة صهيون.

وأذكر بأنه قام شخص بجمع نتف من الصحف النازية ثم أخذ يضمها إلى بعضها مكوناً معلومات هامة ذات نسيج متضامن عن النازية، ولما قبض عليه النازيون واجههم بأنهم نشروا كذا في صحيفة كذا..الخ.

وهذا مشهد حي أضيفه إلى دراستي هذه منقول شخصياً عن المرحوم جمال مفتي "أخ المرحوم لؤي مفتي" من اللاذقية، وهو أستاذ مدرسة، وكان موظفاً في سراي بابنا في الثورة وقبلها، وهو صديق حميم للمرحوم والدي، قال المرحوم حرفيا: كان نديم مفتي قائم مقام، صهيون ومركزه بابنا والجنكيل، أما عبد القادر مفتي فقد كان مفتي اللاذقية، وكان المرحوم مصطفى مجبور (بابنا) صديقاً حميماً لنديم مفتي، وقد ابتدأت الخطة بينهما، وتم الوصول إلى بيت بازيدو من أجل الغاية السابقة، ثم إلى والد نوري الحجي، ثم الذهاب ليلاً إلى جسر الشغور والتي كانت تابعة إلى فيصل، حيث أرسلت برقية إلى فيصل بضم اللاذقية إليه والذي أرسل البرقية المرحوم مصطفى مجبور وشخص من بيت الحجي والمرحوم محمد عبد الرزاق طيبا[1] من الجنكيل، ويبدو أنه كان هنالك جواسيس نقلت البرقية إلى المستعمر الفرنسي، فأحضر المستشار نديم مستجوباً إياه قائلاً:أين كنت؟.

فأجاب نديم مفتي: لم أكن في أي محل.

فقال المستشار: أجل كنت في الجسر.

فأجاب نديم: افعل ما بدا لك.

ولقد تم تشكيل دولة في الحفة برئاسة نديم مفتي وطبيبها الدكتور عادل مفتي، وكان مركز الدولة في بيت إبراهيم أبو علي سليمان والد علي أبو سليمان، وكان أسم المستشار ماكران، وهو من أصدقاء ديغول وقد بدل اسمه ليصبح مون كلان.

---

[1] أعرف جيداً الجواد المرحوم محمد عبد الرازق طيبا، وكان يشبه حاتم الطائي في كرمه، وصدف أن استضاف قرية الجنكيل بعض الرجال من المناطق الشرقية، فمر بهم المرحوم عبد الرازق طيبا، وكان المطر يهطل بغزارة عليهم فألقى التحية قائلاً لهم لمَ لمْ تدخلوا بيت احد، فأجابوه والجمال، هنا انتخى المرحوم وادخل الجمال إلى الإسطبل العائد له بعد أن حطم جداره لتمكين الجمال من الدخول

ولقد قام المذكور بعملية إرهابية حيث شنق خمسة أشخاص، منهم شخص مجنون من الجنكيل، وتم الشنق بعد أن ركب المشنوقين على ظهر أحصنة ومروراً في مسالك القرية على مشهد من الناس، وقد تم الإعدام في ساحة عين الجنكيل، كان ذلك في نهاية عام /1919/، حيث حدثت المهاجرة في شهر آذار عام /1920/.

وكان المرحوم البطل القسام قد جاء من جبلة قاصداً القائد البطل عمر البيطار ومحمد البيطار، ولقد خاطب المستشار السيد نديم مفتي اذهب إلى القسام، فذهب المرحوم نديم مفتي حاملاً القول للقسام، وفي الوقت نفسه اتفق معه على أن يذيع خبراً مفاده أن نديم مفتي حذر القسام، والحقيقة العكس، حيث نقلت الجواسيس ذلك، أما القسام فقد ألقى في صهيون خطبة تشبه خطبة سيدنا علي بن أبي طالب حاثاً شعب صهيون على الجهاد. وهاجر نديم مفتي صهيون وعندما وصل إلى جوار اللاذقية سمع الناس يقولون اندلعت الثورة في صهيون.

- تعقيب واستدراك -

بدا لنا جلياً الدور الذي لعبه كل من السيد ين بازيدو، نوري الحجي، والمذكوران محوران وقطبان هامان في جبل الأكراد ويتزعمان بصورة مباشرة اسرتيهما، هذا فضلاً أن السيد بازيدو كان يستقطب كتلة كبيرة في جبل الأكراد، أما السيد نوري الحجي، فهو زعيم للأكراد في منطقة اللاذقية، وهذا يؤكد قولي السابق بأن الأكراد شركاء في الثورة.

- الأكراد الإخوان والأهل والجيران -

لقد أتيح لي -كما سبق ذكره - أن أزور المكان الذي تحصن به ثوار الأكراد والصهاونة وأصلوا النار لحملة الفرنسيين القادمة لتطويع الأكراد والصهاونة (معركة بلاطة ستربه)، هذا المكان الذي يطل بالكامل على منطقة الأكراد، ويسمح للمتأمل المتفحص أن يقرأ الأسباب المباشرة لهجرة الأكراد إلى منطقتهم الحالية و إسكانهم في هذه المنطقة.

وأنوه استطراداً فالمنطقة عُرّبت بالكامل لغة وعقلاً وأدباً وشعوراً وحكمة وعاطفة، وليس هنالك من أبنائها إلا ويحس أنه عربي حتى الصميم، لذلك فقد كانت منطقة الأكراد الظهير الاستراتيجي للصهاونة، ولولاهم لما فكر شخص من الصهاونة بالثورة والهجرة.

ومن منطقة جبل الأكراد أخذ الصهاونة يشنون الغارة تلو الغارة على الفرنسيين، ويتحكمون في الشريان الرئيسي بين حلب واللاذقية، حيث أتاح لهم هذا الوضع الجديد أن يقيموا حلقة اتصال مع ثورة المرحوم هنانو، وأن يعززوا موقفهم القتالي، هذا وأشير إلى أن إخواننا الأكراد قدموا خدمات وتضحيات واسعة للصهاونة خالية من أية شائبة أو معكر، كما أنهم اشتركوا في القتال لا سيما وبصورة أساسية في معركة بلاطة سترية وفي المعارك المختلفة في منطقة جسر الشغور ولقد توزع الصهاونة في منطقة الأكراد على أقربائهم وأصدقائهم وترتب على هذه الهجرة أن كثرت مظاهر الاجتماع والتعارف وأخذت ظاهرة الزواج المتبادل تقوى بين الطرفين، لذلك فلا يمكن الاقتضاب والقول فقط بأن الأكراد استقبلوا الصهاونة، بل هم شركاء في الثورة بكل معنى الكلمة، وإلا فما معنى هذه الحملة القوية عليهم "بلاطة سترية"، وما معنى اشتراكهم في غزوات منطقة الجسر، وما معنى الأحداث اليومية المتكررة التي صدرت عنهم؟

لذلك فإننا نطالب الشرائح الجديدة الشابة والمتفرغة أن تنبري لدراسة هذه الظاهرة واستجلائها وتوضيحها ووضع النقاط على الحروف صريحة ناطقة، وبذلك فقط يتم الإنصاف.

وتوضيح ذلك أن لسكان جبل الأكراد طبيعة خاصة suis generis تختلف عن طبيعة الصهاونة، ذلك أن الأكراد لم يكونوا بعد قد قطعوا الطور العشائري، لذلك فإن أي موقف للضمير العام conscience collective، والوجدان الكلي الشامل لا ينعقد إلا برأي عام شامل كلي، وهذا بالطبع يتأخر في حدوثه والإفصاع عنه (تماماً كما يحدث في مصر على سبيل المثال)، والأمر على

خلافه بالنسبة للصهاونة فقد قطع هؤلاء الطور العشيري، وبذلك فالضمير العام يعبر عنه فردياً وجماعياً.

والخلاصة فالضمير العام في الأكراد قد يكون قد تأخر في اكتماله حسب طبائع الأشياء، لكنه من حيث النتيجة تحدد وتوضح في الموقف من الفرنسيين وأول مظهر لذلك حماية (نقول حماية وإجارة لا استضافة) الصهاونة.

وبالمناسبة هذه الظاهرة (الحماية) كانت معهودة جداً عند العرب في الجاهلية وكانت تسمى الإجارة، وقد أخذ بها الرسول في دستوره الذي أقامه في المدينة، حيث جاء في هذا الدستور: وإن الله جار لمن برّ واتقى ورسوله[1].

هذا ونشير إلى أن الأكراد والتركمان كانوا يسيطرون على قلاع (الحصن، أبو قبيس، المهالبة، صهيون، بكاس، الشغر، العيد و برزية)، ويحكم هذه القلاع ومحيطها من قبل الأيوبيين الأمير الكردي ناصر الدين منكورس بن خمارتكين، وفضلاً عن ذلك فقد ظهرت فعاليتهم ودورهم السياسي لصالح أمراء الأكراد، وفي عهدهم، جرى الحرب مع الأمير حسن السنجاري الذي اجتاز المسافات الطويلة لمحاربتهم في الساحل، لكنهم مع مرور الزمن وانقضاء العهد الأيوبي والصراع المرير بين الأمراء الأيوبيين لم يعد للأكراد أي دور سياسي، فاطمأنوا وتطامنوا واستقروا كلياً وذابوا في الوسط العربي "يراجع في حرب الأكراد مع حسن السنجاري الدكتور علي خليل كتابه اللاذقية ص 280 وص 298)

- نصرة وتأييد إخواننا العلويين -

وسنستهل بحثنا في التعرض لذروة سنام المجد والوطنية والشرف المقدام الشيخ صالح العلي...، مع العلم أن موقعه المرموق في ثورة الشمال احتلت مركزاً بارزاً أشرنا إليه في حينه.

---

[1] د.برهان زريق: الصحيفة-الميثاق. دستور الرسول في المدينة. أول دستور لحقوق الإنسان، 996 دار عكرمة، دمشق

ومع ذلك، فإذ نشير إلى نصرة إخواننا العلويين للثورة، فلا بد من الإشارة ولو بسرعة إلى معقد الزهو الجليل الذي ابتدأه المرحوم البطل، وإذ أقف مكتوف الأيدي حيال التعبير السني عن موقفه البطولي في تأييد ثورة صهيون، فإنني -حيال هذا الموقف من الإكبار والإعزاز - أسوق الصورة التي دبجتها يراعة الأستاذ آل الجندي حرفياً.

- الشيخ صالح العلي -

وفي الواقع لقد آليت أن لا أكتب شخصياً كي لا تختلط الحقيقة بالانفعال والخيال، لكنني آثرت التقريظ الذي قدمة الإخباري الأستاذ أدهم آل الجندي لأنه أقدم عهداً مني بالنسبة لهذا البطل رغم أنني لمست الكثير من نبل وشجاعة ووطنية وتضحية الشيخ من تضاعيف سيرته وجهاده، ويكفيني أن أقدم ملاحظة بسيطة عن مدى تضحية المذكور، هي أنه كان يصطحب معه في المعركة بصورة دائمة زوجته المرحومة "حبابة" التي كانت تقف إلى جانبه تلقم له السلاح وتقدم له المساعدة.

لذلك فمهما أوتيت من الرجاحة والفصاحة وبلاغة اللسان وصدق الفؤاد والخيال، فلن أبلغ رفعة السيد آل الجندي في تقريظه للزعيم الوطني البطل المناضل الشيخ صالح، فتلك سيمفونية الدهر الخالد وترنيمته التي جاء بها: إلى الجبل الصلد في عقيدته وإيمانه الوطني إلى هاتيك النفس التي توحي بالإباء في أشد ساعات الخطر.

إلى الزعيم الفذ المثالي بجهاده، الذي كان يؤثر رفاقه في السلاح على نفسه في كل شيء.

إلى صاحب البطولات التاريخية الخالدة.

إلى من كانت حياته سفر نفيس من أسفار الجهاد المقدس.

وإلى رفاقه المجاهدين الأخيار الذين تأصلت في نفوسهم العربية الكامنة وإلى أرواح الشهداء الأبرار الذين خرّوا شهداء في

ساحات المجد والشرف كسباً لمرضاة الله والذود عن الوطن، وكان من أغلى أمانيهم أن تتحقق وحدة البلاد السورية[1]. (الصورة)

وباعتبار أن بحثنا يتعلق بثورة الصهاونة، فسأكتفي بذكر بعض الملاحظات على ثورة الشيخ مركزاً على علاقته مع الصهاونة وكما يتضح فيما يلي:

1 - لقد جاء حرفياً على لسان أدهم آل الجندي ما يلي:[2]

((الاجتماع الخطير: وفي 1918/1/15 وجه الزعيم الشيخ صالح العلي دعوة عامة إلى بعض زعماء ووجهاء مشايخ العلويين للاجتماع بالشيخ بدر، وقد لبى الدعوة فريق كبير، كان منهم السادة: أحمد المحمود عدرة – محمد إسماعيل - شيخ أحمد ميهوب – الشيخ معلا – أحمد غانم – الشيخ محسن حرفوش – السيد عبد الكريم الخير – الشيخ علي عباس – اسبر زغيبه – علي زاهر – إسماعيل حسان محي الدين عديا وغيرهم.

هذا ونعلق على هذا النص بما يلي:

1 - الاجتماع كان فعلاً لا انفعالاً نتيجة مضايقة، أوردة فعل، أو غير ذلك.

2 - ضم هذا الإجتماع بعض العناصر السنية، مثل أحمد المحمود (باعتبار أن السنة قليلون في المنطقة)[3] والذين حضروا الإجتماع،مثلوا ممثلوا قطاعاً واسعاً من العلويين (لا من منطقة الشيخ صالح، وإنما امتدت حتى بانياس (اسبر زغيبه) وعبد الكريم الخير (القرداحة) والشيخ محسن حرفوش.

وقد اعتقل الفرنسيون من استطاعوا والقبض عليه من رجال المؤتمر وتوارى الباقون، وأرسل الفرنسيون يطلبون حضور الشيخ صالح العلي إليهم فرفض الدعوة، مع التنويه بأن الملك

---

[1] أدهم آل الجندي ص30

[2] ص31

[3] ذهب السيد عبد القادر المحمود إلى دمشق، وقابل وزير داخلية حكومة فيصل، فأمر له الوزير بثلاثمائة بندقية ومائة شوال طحين وألف ليرة عثمانية، ووصلت هذه الإيرادات محملة على البغال مع رشيد المحمود عن طريق حماه –مصياف. فايز قوصره، المرجع السابق، ص60

فيصل في دمشق كان يقدم المساعدات للشيخ صالح العلي، كما انضم إليه المناضل الكبير حسن سعدية من اللاذقية والوطني الكبير المرحوم عزيز هارون الذي شغل (الفوج الملي) في حماه، حيث تطوع فيه مجاهدون من حماه وطرطوس وجبله وبانياس والحفة واللاذقية، وكان عدد أفراده خمسمائة منهم 150 من المغاوير الفدائيين، وقد أوفد الملك فيصل الضابط الباسل (جميل ماميش) ليقود كتيبة الفدائيين، ولقد اتخذ عزيز هارون مقره الرسمي في مصياف[1].

وكما نؤكد أن ثورة الشيخ صالح العلي لم تكن محصورة في منطقته، بل شملت كافة مناطق العلويين[2] بالإضافة للمناطق السنية في منطقته، فإننا نبرز قائمة بأسماء قواده ومواقعهم الاجتماعية.

- قواد ثورة الشيخ صالح العلي -

وفي هذه الفترة اتسع نطاق الثورة، فانتقى الشيخ صالح العلي قواده من أفذاذ الأبطال، ذوي البأس والشدة والإخلاص لقيادة فصائل المجاهدين وهذه أسماؤهم:

- عزيز هارون، الضابط جميل ماميش – من اللاذقية
- سليم صالح، عباس أحمد – من قرية المرقب - قضاء طرطوس
- حامد مهيوب - من قرية بيت ميهوب - قضاء طرطوس
- كامل المحمود، محمد عدرة - من قرية الخوابي - قضاء طرطوس

---

[1] آدهم آل الجندي: كتابه ص 31 و37

[2] يذكر الرائد احسان هندي في كتابه (كفاح الشعب العربي السوري 908-948، ط2، إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، عام 1962، ص56، أن ثورة الشيخ ابتدأت اولاً ضد الأتراك كما أن ثورته ضد الفرنسيين امتدت من القرداحة شمالاً إلى صافيتا جنوباً والعاصي شرقاً والبحر غرباً وكانت عبقريته القتالية لا تقل عن أمهر المقاتلين ، من ذلك إحتفاظه بقوة إحتياطية لاستخدامها عند الضرورة، ثم الإستخدام الجيد للأرض، والسيطرة على قواده، فكان له هيئة أركان حرب، تشمل الضباط الذين أرسلهم فيصل إليه، وكان من تنظيماته محكمة ثورة أوكل إليها إصدار الأحكام القضائية ومحاسبين تلقوا التبرعات من المهاجرين في أمريكا إضافة إلى المراسلين الذين يرسلون رسائل الشيفرة، ولقد زار الثورة وفد من دمشق مؤلف من الشريف ناصر ووزير الحربية يوسف العظمة ومحافظ حماه.

- أنيس إبراهيم أبو فرد –من طرطوس
- عباس حبيب –من قرية الأندروسة - قضاء طرطوس
- هاشم إسماعيل حسن – من قرية بحنين - قضاء طرطوس
- فهد الشاكر، مصطفى خيربك، أبو علي العجمي، محمد الديوب شلهوب – من وادي العيون –قضاء مصياف
- محمد النداء – من قرية رستين - قضاء مصياف
- حبيب محمود، صالح مهيوب – من قرية بشراغي –قضاء جبلة
- علي مفلح، جبور مفلح، مصطفى كروم – من قرية سنديانا - قضاء جبلة
- أحمد عليا جديد – من قرية دوير بعبدي –قضاء جبلة
- يوسف عيد، سليمان عيد –قضاء جبلة
- ابراهيم صالح – من قرية البودي - قضاء جبلة
- طاهر الخطيب، خليل الخطيب – من قرية جيبول –قضاء جبلة
- مرشد شيما – من قرية خرائب سالم –من جبلة
- إسبر زغيبة – من قرية قرقفتي – قضاء بانياس
جابر ميهوب – من قرية الحطانية – قضاء بانياس
عزيز برير – من قرية قنية عطرة – قضاء بانياس
- محمد إبراهيم الشيخ –من قرية العنازة – قضاء بانياس
- خليل الخطيب –من قرية برمانة –قضاء بانياس

وغيرهم من القواد الذين لم نستطع معرفتهم، وقد كتبت الشهادة لفريق منهم، وحكم على أكثرهم بالإعدام، ثم استطاعوا النجاة بوسائل غريبة مدهشة.

وأشير استطراداً فهذا التقسيم "إلى أكراد –تركمان - علويين" اقتضته الظروف التاريخية في البحث ومقتضياته، وتبقى الوطنية هي الصخرة الصماء في سوريا التي صهرت كافة المواطنين في بوتقة واحدة مآلها الوحدة العربية مبرأة من دنس الصهيونية المغتصبة أرض فلسطين – جرحنا الكبير - هذا ولا تساع رقعة معارك الشيخ صالح زماناً ومكاناً، فإننا نورد فقط أسماء المعارك التي قاتل فيها[1].

---

[1] آل الجندي ص32 و 33

موقعة بدر غنام أو وادي ورور – معركة الحمام والمرقب – معركة المريقب – معركة كاف الجاع – طرطوس – معارك السودة – قلعة المرقب – خربة الريح وقرية الصوابي – وادي العيون – بانياس – الدريكيش – عين قضيب، وتطويق جيش غورو – حصار مصياف – معركة فتوح – وادي جهنم – الدويلية – وقعة الديميس – رأس قاسم – البودي وعين شقاق – وقعة الجرد ورأس ملواخ – معركة قرفيص – جوار البقر قصابين – محمد جوفين.

حكم على البطل الشيخ صالح العلي بالإعدام بعد انطفاء الثورة، ثم عفي عنه، وبعد ذلك عاد إلى عرينه بعد أن استقبله في الطريق سكان جبلة وبانياس وطرطوس، استقبال الملوك الفاتحين[2] وانزوى وفرض على نفسه عزلة شديدة منصرفاً إلى تدينه العميق، ولم يخرج من عزلته الهادئة إلا في المواقف الوطنية، مثل إرساله عام 1945 البرقية المشهورة التي سنذكر فيها العدوان على دمشق، وهذا نصها[3]: سيوف المجاهدين تتململ في الأعماق ونفوسهم في غليان واضطراب لا تقبل أن تهان الأمة وتخرق حرمة الاستقلال، إننا للمعتدين بالمرصاد وسيرى الظالمون أي منقلب ينقلبون.

ولا حاجة للتذكير بدعم منطقة صلاح الدين للثائر الشيخ صالح العلي والعكس، وتزهو الصورة فخراً واعتزازاً بالتقاء ثورة الشيخ مع ثورة المجاهد البطل هنانو ومع ثورة منطقة صلاح الدين، ومن مظاهر دعم العلويين لثورة منطقة صلاح الدين مساعدة بيت إسماعيل في القرداحة، ثم مساعدة منطقة بيت الشلف، وقد أشرنا سابقاً إلى الاستجابة لوجهاء المسلمين العلويين أمثال: (أسعد ميلي وأسعد كنجو ومحمد خليلي) في قرى طرجانو والمزرعة والجنجانية.

وقد روى لي المحامي الأخ محمد يوسف علي مليو أن عشيرة بيت الشلف تنتمي إلى حبرها محفوض الشلف الذي ينتمي بدوره إلى الأمير المرسل الكلبي التنوخي الذي قدم من سنجار في العراق، وأضاف بأنه عندما أتت طلائع المستعمر الفرنسي عام

---

[1] آل الجندي ص34 وما بعدها

[2] آل الجندي ص 57

[3] المرجع السابق ص57

/1918/ عرضوا على زعيم بيت الشلف المسمى حمد بن تامر بن إبراهيم جديد موضوع التعاون معهم فرفض بإباء، وأخذ ينسق مع زعيم ثورة الصهاونة المرحوم عمر البيطار ومع ثورة الشيخ صالح العلي الذي يتزعم عشيرة البشارغة القادمة من مصر، وذلك من أجل مقاومة الفرنسيين، واستطرد المحامي يقول بأن جده اشترك في المقاومة ضد الفرنسيين، وأن هذه المعلومات نقلت حرفياً عن الجد ويصف الدكتور علي خليل أنه ((لما جهز الفرنسيون حملة كبيرة بقيادة المقدم سيار لإخضاع الثورة أسرع الثوار بإيفاد الرسل إلى القرى وإلى وجهاء المسلمين العلويين الذين اشتهروا بالوطنية والمقاواة منهم محمد خليل (قرية الجنجانية)، أسعد ميني (قرية طرجانو) أسعد كنجو (قرية المزرعة) فحثهم على قطع الطريق على الحملة الزاحفة وصد هجومها ومنع وصولها إلى بابنا وقد توجه هؤلاء إلى الوجوه إلى موقع نهر طرجانو وتحصن اتباعهم بالهضاب ووزعوا الكمائن في المواقع المتبقية لكن القوات الفرنسية تمكنت من هذه الكمائن ووصلت إلى بانياس)): د.علي خليل كتابه ص329.

ولقد عرضنا سابقاً للموافقة التي اقترحها هنانو على الشيخ صالح العلي أن يذهب وفد يضم الثورات الثلاث "هنانو – الشيخ صالح العلي – صهيون"، وأن يطوف هذا الوفد بقرى صهيون وبقرى العلويين من أجل تلقي التأييد، وفعلاً تم ذلك، كما لا ننسى ذلك الاستقبال الشعبي للمجاهد الشيخ صالح العلي عندما عاد إلى منزله بعد تخفيه وإعفاء الفرنسيين عنه، حيث أمتد الاستقبال من قرى جبلة حتى القرى المحيطة بمنزله[1]، وهو في الوقت نفسه تأييد لحلفائه الزعيم هنانو والزعيم البيطار، كما لا ننسى أن شخصية كبيرة من جبل دريوس هو المرحوم مصطفى بدور كان يعطف على ثورة جبل صهيون ويتعاون معها[2].

---

[1] ادهم آل الجندي: المرجع السابق ص؟؟

[2] رواية المحامي الأخ أمير البيرق لي شخصياً

- 3 - تأييد واحتضان التركمان للثورة -

لقد ساعد التركمان في سوريا ودعموا الصهاونة لا سيما أن بعض وشائج القربي والزواج قائمة بين الطرفين، وأن حدود منطقة صهيون تتداخل مع مناطق التركمان، وفضلاً عن ذلك فقد كان الصهاونة يختبئون عند الضرورة عند التركمان مما يتيح لهم هذا الامتداد الواسع الكر والفر، لا بل أن قرية غمام كانت تابعة لبابنا من الناحية الإدارية، وأهم من ذلك فالصهاونة كانوا يشترون السلاح من تركيا ومن الرجال الذين قاموا بذلك المرحوم محمود عطور فقد كان يخبئ السلاح في اللاذقية -الفاروس (رواية الفاضل مردم ناصيف)، وكان المرحوم والدي المدعو خليل زريق يشتري السلاح من أنطاكية، ثم يبيعها إلى إخوانه في منطقة صلاح الدين، ولقد شاهدت بأم عيني السلاح المعد للبيع يملأ بيتنا، منوهاً مستطرداً بأن والدي كرر إحضار السلاح مراراً ووضعه في البيت علناً على أشهاد من القرية دون أن يخبر عنه أحد السلطات الفرنسية.

- الثورة الأم في الشمال والإحتضان -

- مع ثورة الشيخ صالح العلي وثورة منطقة صلاح الدين -

وسنمر مرور الكرام على ثورة الشمال، لكننا سنعانق بالقدر الكافي المتعلق بالتقائها مع ثورة "صهيون، الشيخ صالح العلي" مقدمين اللمسات الأساسية الضرورية، فيما يلي ذلك:

الاجتماع التاريخي: فقد رأى الزعيم هنانو ضرورة عقد اجتماع عام يضم زعماء أقضية إدلب وكفر تخاريم وجسر الشغور وحارم، لذلك حضر المذكور إلى إدلب، وعقد أول اجتماع فيها، حيث ألقى على الحاضرين بياناً ألهب فيه النفوس، ولعل أبرز الشخصيات الذين حضروا هذا الاجتماع التاريخي صبحي بركات، عمر البيطار، مصطفى الحاج حسين، عزيز آغا هارون عن اللاذقية، وغيرهم من ممثلي مجاهدي أنطاكية وجبل الزاوية وأريحا وأورم الجوز ومعرة النعمان والريحانة والعمق وجسر الشغور، وبعد التداول أقر الحاضرون ما قاله الزعيم هنانو[1].

---

[1] آل الجندي ص66

تكييفنا للنظام الاجتماعي في
منطقة صلاح الدين أثناء الثورة

سؤال عريض يطرح نفسه هو: هل إن ثورة منطقة صلاح الدين عاطفة تبجح وثورة غضب وعنجهية أم نبل ثورة اعتزاز وكرامة وصرخة وطن ووثبة كبرياء ونداء ضمير وصوت حق وحرية؟

نستطيع التأكيد جازمين أن هذه المنطقة لم تحمل في قرارة نفسها أية غلالة بسيطة من التشنج وعدم المسؤولية التاريخية أمام الله والواجب والوطن، بل انطلقت من محض حب الوطن والتضحية بالنفس في سبيل الله.

نقول غلالة بسيطة لأن المجتمع النبيل الشهم الواثق من نفسه المحب لوطنه الفخور المعتز بكرامته، هذا المجتمع لا يمكن أن يكون متعصباً، فالتعصب ليس شيمة الأسوياء، بل سمة النفوس القاحلة الجدباء، وهذا ما تؤكده لنا تصويبات وأدبيات علم النفس الاجتماعي، فهذا المجتمع الذي وافق كلياً وبشكل كاسح جامع مانع على الثورة لا يمكن أن يوصف بالتعصب، لأن التعصب حالة مرضية وتشنجية وانفعال، أما الثورة والخروج على الظالم والدفاع عن الأرض والعرض، فهي أصالة وكبرياء وثقة بالذات وجلال الموقف ووزناً محكماً لخطورة النتائج، لا سيما أن هذا الحادث جسيم تنتج عنه نتائج خطيرة في المال والأنفس والحياة.

وفي هذا الصدد أطرح السؤال التالي: لَمَ لَمْ نعهد شخصاً واحداً من الصهاونة خان الأهل والدار متعاوناً مع المستعمر الفرنسي، أليس ذلك دليلاً على صلابة هذا المجتمع وصلابة إيمانه ونفسه، وهل يمكن أن نألف بهذه الجماعة أي مظهر من عيوب المرض أو الضعف النفسي، بل الانجرار وراء الفعل العشيري، مع العلم أن هذا المجتمع قطع في تطوره الاجتماعي طور العشيرة.

إن ثورة صهيون أطلقت أول رصاصة من جعبة سوريا المناضلة، وتبعاً لذلك تتالت الثورات في سوريا، وبالتالي فقد كانت هذه الثورة موطن إعجاب جميع ما في سوريا، وهذا ما نلمحه من

ترشيح الزعيم هنانو للبطل عمر البيطار قائداً لثورة الشمال كما سنرى، فهل بعد ذلك تعتبر الثورة محض حالة تشنجية غضبية صرفة أم ثورة شموخ وكبرياء ومروءة؟

وتدليلاً وتأكيداً وترسيخاً لما ذكرناه بسطنا الوقائع الآتية:

لقد اشترك الصهاونة مع المرحومين المجاهدين (إبراهيم هنانو والشيخ صالح العلي)، وهذا يدل على أن الثورة انطلقت تعبيراً عن إرادة موضوعية فاعلة درست الأسباب وتحملت النتائج الوخيمة على سعتها ونتائجها، وكان باستطاعة قطان المنطقة تجنب النتائج الحافة بهم بأن يقبلوا من الحاكم الفرنسي أوامره ومطالبه، وأن يعتذروا على بعض الأعمال التي قام بها شبانهم، كأعمال الزقزقانية مثلاً.

كان للصهاونة مؤيدون من آل بدور (هو غير المسؤول علي بدور) وقد تعاونوا معه على سبيل الثقة والتضامن والحب والاحترام المتبادل.

كان لقطان قرية شيرقاق ودفيل وبكاس والزنقوفة علاقات قوية مع علويي القبلة[1] بحكم التضامن والثقة المتبادلة، ويظهر ذلك جلياً في العلاقة مع قطان منطقة بيت الشلف.

لنستمع إلى هذه الحادثة الطريفة "الخفيفة على اللسان الثقيلة في الميزان" التي تفصح عن كرم العلوي وإبائه وحبه للضيف.

لقد لجأ بعض أهالي صهيون إلى أصدقائهم من (أهل القبلة) وكالعادة أعد لهم المضيف الغداء، وجلس معهم يتناول الطعام، وما كاد الضيوف يأكلون حتى أحسّوا باحمرار وجه المضيف وتشنجه وتلبكه وتماسكه عند ابتلاع اللقمة، وبعد الاستفسار أتضح أنه كان في الطعام فرخ فأر سقط من السقف في صحن المضيف الذي فضل أن يبتلع الفأر دون أن يشعر الضيوف بشيء من ذلك، ودون أن يعكر لهم صفو طعامهم، فهل نغض البصر عن ذكر هذه الحادثة ودلالتها على مروءة العربي وحبه للضيف واستماتته من أجل إكرامه، وهل تختلف هذه القصة عن قصة الحطيئة مع ضيفه وقصيدته التي قال لها:

---

[1] أهل القبلة هم العلويون المجاورون لأهالي صهيون من جهة الجنوب

فقال هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه الليلة اللحما.
فروى قليلاً ثم أحجم تارة وإن هو لم يذبح فتاه فقدهم

لم يشهد التاريخ حباً واحتراماً وإخلاصاً كما كان قائماً بين الصهيوني المسلم والصهيوني المسيحي إلى حد يصل بنا إلى درجة الغزل، إذ لم نسمع في أحداث الثورة أو قبلها أو بعدها اعتداءاً ولو بسيطاً من الصهاونة المسلمين على الصهاونة المسيحيين "المواطنين القلة" سكان المنطقة والعكس، فقد نسمع عن انتقال ديني (نقول انتقال بدليل قوله تعالى: ((تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)) أو تحول تاريخي من المسيحية إلى الإسلام قامت بذلك أسرة ميرامة والمجبور في بابنا، ولكننا في دارنا الصغيرة (صهيون) لم نسمع أي ضغط أو إكراه أو تعد على أحد. واستطراداً فقد كان في الحفة أكثر من عشرين عائلة مسيحية ولهم كنيسة وتسمى مار ميخائيل وكان اسم الخوري عبد الله نصير بن حنا الذي تسلم منصبه سنة 1903 عوضاً عن الخوري إبراهيم صوفية وأقدم العائلات المسيحية في الحفة بيت نصير وهم يعودون في الأصول إلى عشيرة القصيرات في نجران اليمن وجدهم الرئيس كان يدعى(نهار نصير) وأول ما سكن في قرية القزمولية ثم انتقل إلى الحفة التي لم يكن بها سوى عائلة بيت سعد وقد تفرع عن بيت نصير عدة عائلات مثل بيت سلوم وبيت ديب وبيت نعمة وبيت صهيوني ومن العائلات المسيحية في قرية الحفة بيت صوفية وهم من أنطاكية وبيت شحود وهم من السودة (قضاء المرقب) وقد اختصوا بالتصنيع المتعلق بالخيول (البيطرة - الحدوة - السروج) وبيت سكريه وقد تفرع عنهم بيت عبيد وبيت الأشقر. د.خليل كتابه ص226 و241 وكان في قضاء صهيون عدة كنائس في الحفة وعرامو والغنيمية.

هنالك حالات تآخي بين بعض المسلمين السنة والمسلمين العلويين، ومثلاً نضربه على ذلك هو التآخي بين الحكيم محمود زريق وصديقه المرحوم عادل دواي من قرية عرامو، إضافة إلى القرابة الدموية التي كانت قائمة بين بيت أصلان في الجنكيل وبيت

أصلان في القرداحة، والأمر نفسه بالنسبة لبيت حسن في بابنا مع أقربائهم في القرداحة.

لقد أسقط الأمر في يد الشتا (مصطلح كان يطلق على الثوار) الذين ضاق بهم العيش، فقبضوا -على سبيل الرهينة - على شخص من مدينة اللاذقية "من آل صوايا"، وكان بنظر الشتا يتعاون مع الفرنسيين، وعندما حان وقت الطعام أوعز أحد رجال الشتا للرهينة أن يأكل منفرداً، هنا قام الرئيس وراح يؤنب رجل الشتا على فعلته، وأخذ يلاطف للرهينة ويعتذر له طالباً منه أن يأكل مع الجميع، وقائلاً له نحن منك وأنت منّا وقد فعلنا ذلك اضطراراً.

في الأيام الأولى لدخول الحملة الفرنسية مدينة اللاذقية "الأغلب اليوم الثالث"، قام شابان من بلدة بابنا "الأرجح أحدهما من بيت المدنية والثاني هو المرحوم حسن طه" برمي ضابط فرنسي بالرصاص فقتلوه، فماذا يكون الدافع في هذه اللحظة؟ إذا لم يكون وطنياً خالصاً محضاً.

وبعد مدة وجيزة من ذلك اندفعت مجموعة من منطقة صلاح الدين يبلغ عددها تسعة أشخاص أو ثلاثة عشر شخصاً، وهاجموا الفرنسيين قرب نهر الكبير وقتل المهاجمون جميعاً، والأهم من ذلك أن الثوار هاجموا الفرنسيين في مدينة اللاذقية.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام هو:

هل كانت الثورة فعلاً لقاحياً أم أنها طور من أطوار عصر البطولة؟

لقد مر أكثر الشعوب بهذا الطور البطولي الذي يثمن القوة، ويقدرها حق قدرها لا سيما إذا كانت دفاعاً عن الأرض والعرض، بقي علينا أن نجيب على السؤال الأول، أي هل كان الثوار لقاحيون؟ - قبل الإجابة عن هذا السؤال، علينا أن نجلي هذا المفهوم، فما المقصود منه؟

يجيب عن ذلك الأستاذ هادي العلوي[1]، بقوله: قوم لقاح أي لا يدينون لسلطان.

---

[1] هادي العلوي: من القلحية إلى الثورى مقلم منشور في مجلة النهج، دمشق سنة 996 ص53

يقول الشاعر:

أبوا دين الملوك فهم لقاح إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا

ووصفت قريش بأنها: لا تملك ولا تُملك

وفي معجم البلدان: سجستان إحدى بلدان المشرق، ولم تزل لقاحاً

وفي السريانية "لقاح" تعني وراء المدنية

واستطراداً فلفظة "دكل" تؤدي المعنى السالف الذكر ولا عجب ففي منطقة صلاح الدين توجد قرية بداكلة -تبعد /2/كم عن الحفة - وحرف الباء في الكلمة زائد ويعتبر أداة التعريف في السريانية، مثل ما نحن في بابنا وبكاس وبرمسه وبزفت وبرابشبو، وبالتالي سميت بدالكة بهذا الاسم لبعدها عن العمران في نظر العصر.

إذن فمنطقة صلاح الدين ليست لقاحية صرفة، وإنما مستأنسة وعمرانية، وبابنا -البلدة الحضارية - قائمة على عروشها وتأتي أكلها كل حين بإذن الله، كل ذلك منذ عهد السريان وقبل الاستعمار لها من قبل اليونان والرومان.

أجل قد يكون الصهيوني لقاحي دفاعاً عن النفس وعزتها وكرامتها لا بمعنى أنه لا يخضع لحكم أو سلطان أو قرار عقل وضمير وواجب.

ونعتقد أن ثورة صهيون مظهر من مظاهر الفتوه التي ملأت تاريخنا والتي كانت تزكو عند الشدائد لا سيما عند تقصير السلطة السياسية في الدفاع عن الأرض[1].

- توقف القتال والعودة إلى الديار -

لعله من المناسب القول إننا استعملنا كلمة (توقف)، وليس فشل الثورة، لأنها مثلها مثل بقية الثورات السورية -حققت غايتها أو قسماً من هذه الغايات، وهو إشعار المستعمر أن هنالك وطناً سورياً بكل ما تعني الكلمة من معنى وترتب من النتائج... أجل

---

[1] يراجع في ذلك الدكتور عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، ص117.

توقفت الثورة وعاد المجاهدون بعوائلهم إلى ديارهم بعد أن نكبوا وفتك بهم وشردوا، وأوقعوا بالمستعمر الأمرّين، ونستطيع القول إن أهم الأسباب في التوقف هو أن الثورة -أية ثورة - ليست مطلقة، وإنما لها حدود ونطاق وإمكانيات، ولعل أهم هذه الأسباب[1]:

1 - نقص الأسلحة والذخيرة وعدم إمكانية تأمينها.

2 - ضعف التمويل أمام الثورة، ولم يكن هنالك جهة يمكن اعتمادها في ذلك[2].

3 - نكول تركيا عن تنفيذ الإتفاقية التي عقدها هنانو، مع ممثليها وضغطها على المجاهدين معنوياً لإنهاء الثورة.

4 - تجنيد فرنسا كل إمكانياتها العسكرية والسياسية للقضاء عليها.

ويظهر أن السياسات الخارجية لتركيا تغيرت من دولة تدعم الثورة إلى دولة توقف هذا الدعم بسبب المصالح المستجدة الطارئة بالإضافة إلى الاتفاقيات المستحدثة مع فرنسا.

وأضاف الأستاذ فايز قوصره إلى ذلك عدة أسباب منها :

1 - ضعف الدعاية لها في الخارج

2 - عدم الدعم من الخارج

3 - نقص الأسلحة وتنوعها[3].

وبعد العودة إلى الديار استعمل الفرنسي أسلوب الخنق والتطويق والتطويع والمحاصرة، إذ عمد إلى نقل الحكومة من بابنا، هذه البلدة التي عاشت في ذروة صلب التاريخ منذ أجدادنا الساميين، إضافة إلى ذلك فقد مارست شتى صنوف العذاب والنهش والتنكيل والإقصاء انتقاماً وثأراً لما فعله سكان المنطقة.

---

[1] كفاح الشعب العربي السوري، منشورات إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي 908و948و الدراسة الفائزة بالجائزة الأولى لمسابقة الأبحاث القومية والعسكرية لسنة 1962 ص83، وقد استعملت عبارة "توقف".

[2] لم يعدم الأمر وجود المساعدات الطفيفة فقد ذكر لي الفاضل محمد شاكر ياسين المرجع السابق ص83 (أن المرحوم البطل أبو عارف البيطار كان يتلقى المساعدات من قبل الملك فيصل في دمشق)

[3] كتاب الثورة العربية في الشمال ص68

ولقد استغرب الناس منا الإقدام على متابعة العلم إذ من الاستحالة لفرنسا أن تتيح لنا التوظف، ونحن من منطقة صلاح الدين، وعلى هذا الأساس كنا نواجه النقد و الممانعة ونلام، وكان الناس يتصدون لنا بذلك.

- الشتا -

لم نقوَ على الوصول إلى الدلالة اللغوية لهذه الكلمة ولربما تكون مأخوذة من التشتت والخروج والتمرد والتعرض إلى قسوة الشتاء، بيد أننا استطعنا أن ندرك المعنى المفهوم، وهو انصرافه إلى الثوار "اللقاحيين" الذين ترسبوا عن الثورة، فأبوا أن يعيشوا تحت رحمة المستعمر ومظلته مع العلم بأن هؤلاء لم يكونوا مجرمين تسربلوا بأحكام جزائية، بل محض ثوار مثلهم مثل غيرهم من الثوار، ومع التنويه بأن المذكورين استمروا في العمل الثوري ضد الفرنسيين قتلاً وتخريباً لأموالهم وقد خرجوا على القانون بالقدر الذي تمليه حاجتهم إلى ضرورة المعيشة والسلاح.

ولقد اعتبر الشتا حادثة بيت صوايا من صلب الوطنية السورية ونحن لا نقر الشتا على فعلتهم إلا إذا ثبت تعاون الرهينة (صوايا) بشكل أكيد مع الفرنسيين.

ومعلوم أن الثوار في منطق القانون الدولي والشريعة الإسلامية هم أشخاص يخرجون على المستعمر وشرعيته الضالة الكاذبة لكنهم يتقيدون بأحكام ثورتهم المتضمنة مقاومة الاستعمار وإحلال قتل جنوده وفقاً لقواعد الحرب ولمنظومتهم السلوكية.

أثر عن الرسول الأعظم أنه سأل في إحدى الغزوات -بعد انتهاء المعركة - عن الطعام المهيأ للغداء فأجابوه أنه من مال غير مال الغزو، فانبرى الرسول يكفت القدور لأنها غير مشروعة رغم أن جيشه جائعاً منتظراً الطعام.

لا نستطيع أن نقيّم الشتا بشرعية حادثة "كفت القدور" السابقة، قدور الطعام، لأن هذا الطعام غير حلال.

ونؤكد ما قلناه سابقاً من أننا نؤيد الشتا في أعمالهم ضد الفرنسيين وعلى ضوء أحكام قوانين الحرب، لكننا لا نؤيد أحداً في

أعماله المتحللة من كل ضابط قانوني وخلقي تقره شرعة الإنسان وشرعة الدين الحنيف، ولا نقر بأي شكل ولأي سبب التطويح بالمواطنة لصالح أي فئة وأي سبب.

ولقد التجأ بعض الشتا إلى تركيا، وقد أتيح لي مؤخراً أن اجتمع مع أحدهم وهو من بيت المدنية، وكان للمذكور دعوى قضائية أمام القاضي، وقد بادره القاضي بالقول ارجع إلى الوراء، وكرر وكرر الطلب مراراً بالأمر بالرجوع، فما كان من المذكور إلا أن ضرب رأسه بالحائط وبشدة حتى سال منه الدم، ثم خرج دون إذن القاضي من الغرفة ليسجل أعظم مشهد إخجال وإرباك للقاضي، كل ذلك تعبيراً عن اللاقاحية والبأس والرفض لعقل القاضي الذي بالغ في الإهانة.

أجل لقد بقي رجال الشتا يقاتلون ورفضوا أن يتنازلوا عن أسلحتهم، إلا أن مأساتهم التراجيدية المأساوية أن لجؤوا إلى مغارة قرب إدلب، فأخبر أحد الرعاة الفرنسيين عنهم، هنا فاجأهم العدو واستطاع أن يقتلهم جميعاً ما عدا شخص هو " المرحوم حسيب كمون"، ومن الذين قتلوا المرحومين: محمد علي بيطار - ناجي بيطار - سليم قاورمه.

الوعي بمسألة الشتا وتقويمها

لقد عاد الصهاونة إلى الديار بصورة محترمة ولم تمارس عليهم السلطة الفرنسية سوى الضغط غير المباشر، وكان من المفروض بالشتا أن يحلبوا في إناء جماعتهم، ويقبلوا الواقع الذي قبلته الجماعة لا سيما أن هذا الواقع تعاقدي مع الفرنسي وليس وقوعاً وأن يتخلوا عن أي مظهر تشنجي، ولا يكون وعيهم ممثلاً لوعي شمشون الجبار الذي منطق قضيته بالعبارة الآتية: عليَّ وعلى أعدائي.

إن بقاء الشتا على تمردهم يضر بعشيرتهم وأهلهم لا سيما أن منطقة صهيون لا زالت تكن لهم الكثير من الأفضال الجهادية.

كما أن منطقة الشمال (منطقة هنانو) ومنطقة الأكراد هي أيضاً احتفظت لهم بهذه الصورة الزهية.

لقد كان الشتا ينتقلون هنا وهنالك رغم أنهم ارتكبوا بعض الأخطاء نتيجة خسرانهم القاعدة الاجتماعية، ومع ذلك فقد بقوا مدة طويلة ينتقلون ويتمردون على السلطة ولو أنهم مقلوعو الجذور لما بقوا تلك المدة الطويلة.

وإنني أذكر جيداً أن الضمير الجمعي في منطقة صهيون بقي يكن للشتا عطفاً شديداً وتقديراً أشد، وكان يردد بطولاتهم ضد الفرنسيين خاصة ما تعلق بالمرحوم سليم قاورمة والمرحومين محمد علي بيطار ونجيب البيطار، كما أذكر نقلاً عن مجتمع صهيون أن الشتا رفضوا العودة إلى الوطن والعيش تحت رحمة المستعمر.

- المجاهد البطل عمر البيطار -

- "ذروة سنام الإباء والشرف والمروءة" -

طوفت في مختلف جوانب الموضوع محاولاً إلقاء الضوء على هذا المجتمع، مجتمع منطقة صلاح الدين، لكن بقي على شيء أساسي هو وضع العمامة لتشرف الرأس، ولا عجب فالعمامة شيء عظيم كرمز للعربي.

والعمامة نظير لبس التاج كرمز للأكاسرة والقياصرة، ذلك أن العمامة عند العربي رمز كبير الدلالة والتعبير عن العربي تمسكاً بقيمه وشيمه وشخصيته.

وعمامة ثورة صهيون هو البطل الأواه المنيب الشجاع السموح الكريم المروءة والكرم المرحوم عمر البيطار توأم البطل عمر المختار في ليبيا، فالزعيمان من مقطع سره واحدة هي العروبة والإسلام...

ومن يدقق في حيثيات الموضوع يجد في الشخصين الدلالة عينها، نجد صدق ونقاء الفطرة وصفائها وصدقية الجهاد[1]، بالمفهوم الإسلامي القناعة الخلقية، التواضع الأصلي، العفة الخلقية[1].

---

[1] عبد الله العروي: السنة والإصلاح، الدار البيضاء، المغرب ط1، 2008، ص168 حيث تكلم عن هذه الظاهرة في الإسلام.

وهكذا وفي الحقيقة، لقد انتابتني المهابة والإجلال والإكبار حيال ماذا أكتب عن بطلنا؟

وترددت حتى أنني فكرت في إلغاء الكتابة عنه، وهذا ديدني عندما أقف أمام الرجال العظام، وهذا هو السبب في رفض الكتابة عن الزعيم عبد الناصر لصعوبة الإحاطة بمثل هذه الزعامة وقيمها وشمولها، لكن الذي حسم الموضوع هو أنه وقع في يدي حفل تأمين أقيم في ذكرى وفاة مجاهدنا، وقد ألقيت بعض الكلمات في هذه المناسبة[2]، وهكذا فإنني أزجي للقارئ بعض المقتطفات التي كانت قد ألقيت في هذه المناسبة، وقد نشرت وقائعها في جريدة الخبر باللاذقية.

1 - مقتطفات من قصيدة المرحوم عبد القادر حسن:

يا فقيد البلاد والسيف والصبر
احتساباً لقد مللت الزمانا
أم رأيت الأحلام زاهرة الغصن
فأشبعت نفسك اطمئنانا
ورأيت الجهاد صكه النصر
فأغمضت جفنك اليقظانا
كنت رمز الجهاد يحجبك الصمت
احتقاراً بما حوت دنيانا
هكذا الفضل والسخي إذا ما
حاول البذل حالف الكتمانا
لا تظن من أراد علواً
نال ما نلت رفعة ومكانا

2 - مقتطفات من قصيدة الشاعر المبدع نديم محمد:

كوب الشهيد من اللظى المشبوب فاشرب ودع لسواك فضل الكوب
حق الشهادة أن تجر ذيولها صحراء بين قطوفة وكثيب

---

[1] انظر كلمة قائم مقام الحفة: المرحوم عبد الله التامر الآتي بيانها
[2] جريدة الخبر –عدد 1946/4/14/اللاذقية –لصاحبها محمد الريس

للأمس في عيني صورة أشمط
فحل حديد الشكتين صليب
يبلى بلاء الليث عن أشباله
ويعف عند مخفف المسلوب
لبّى نداء السيف يمسح نصله
ومشى ليوم في الزمان عصيب
والموت بين مقدم ومؤخر
ضرب من التصعيد والتصويب

3 - مقتطفات من قصيدة الأستاذ محمد علي الشريقي:

مضى عمر البيطار يا قوم شيدوا
بذكراه أبطال الجهاد ومجّدوا
ألا واذرفوا دماً سخياً لفقده
فما عمر إلا زعيم وسيد
توارى عن الأبصار لكن ذكره
خلود فلا يمحوه أمس ولا غد
وعاش عزيز النفس بين عشيرة
لها في جبين الدهر مجد وسؤدد
تنادى عن الأوطان من أجل غاية
فما هي إلا للكرامة مقصد
أوى لبلاد الترك لا عن كراهة
ولكنه يأبى الحياة تهدد
وظل غريباً حيث فاجأه الردى
لذا كسفت شمس وأظلم فرقد
وراحت كرام العرب تنعي فقيدها
وتندب شهماً وهو في المجد أوحد
فناحت عليه النائحات وقد علا
عويل الثكالى وفي الرمس يرقد
تجملت في ثوب الفضيلة والتقى
وكنت بهذي الدار لا شك تزهد

حويت من الأخلاق أجمل حلة
وسارعت نحو المجد تسمو وتصعد

4 - مقتطفات من قصيدة المرحوم نديم إسماعيل:

جبالك الشم بعد اليوم يا عمر
ثكلى تكاد من الأحزان تنفطر
أليس من ألم البلوى وأفدحها
ألا يضمك في خفاقة الصدر
حلقت نسراً أعارته ملائكة
من السماء جناحاً ريشة القدر
حقيقة صوت إسرائيل منتقماً
على البقاء فلا تُبقي ولا تذر
ساقت فرنسة عليه كل قشعمة
أزيزها كفريق الجن ينتشر
حتى إذا حلقت تزهو بقدرتها
قنصتها وكذلك القشعم الذكر
ما أسفر الصبح في صهيون منتشراً
بخمر عرسك إلا أسفر الظفر[1]
أو تسألوا القلعة الشماء قال لهم
منها لسان الخبر والخبر
بحراً من الدم موارا فتنقله
أو داء صهيون حيث البحر ينتظر
يا أرض (مرسين) رفقاً إنه رجل
به الرجولة والأخلاق تزدهر
صهيون غيل ووكر خالد أشب
يبكي عليك أبيد العمر يا عمر

5 - مقتطفات من قصيدة الأديب السيد محمد عباس:

ففي عمر ترى ليثاً غضوبا
يفكك عن كواهلك الاسارا

---

[1] يلاحظ القارئ أن كلمة صهيون هنا في الحفل التأبيني تعني منطقة صلاح الدين

سليه كيف ناضل وهو خال
وما عرف التراجع والصغارا
رأى وهو الأبي الظلم يسعى
إليه فما تخاذل أو توارى
فما صهيون إلا جار خير
لدريوس إذا خافت عثارا
غذانا حب سوريا جميعاً
وهذا الحب أوسعنا افتخارا

6 - سنرصع صدر هذه المناسبة التأبينية بجوهرة انطلقت من فم الشاعر عمر أبي ريشة في حفل تأبين البطل إبراهيم هنانو، وطبعاً فهذا التأبين الأخير لا يتلازم زمنياً مع تأبين البطل عمر البيطار، وإن كان التلازم موضوعياً هو أن الثورة تبقى واحدة، يقول الشاعر المجيد أبو ريشة:

هنانو، أي صاعقة أقضت
على صرح من العليا مشيد
هنانو، أي سيف غيبته
يد الأقدار عن غمد اللحود
رجال لا تلين لهم قناة،
إذا عصف الحديد على الحديد
يعز علي مرآهم جميعاً
وقد أجروا والدموع على الخدود
وما علمتهم غير ابتسام
إذا عبس الوغى تحت البنود
وأفظع منظر حر جريح
بكى أسفاً على حر شهيد
صريع الموت هل أبقيت سهماً
ولم تقذفه بالعزم السديد
ومنك بطولة الأجيال تدوي
مناضلة عن المجد التليد

وأنت على يد الآسي عليل
تصارع صولة الداء العنيد
وما السنون هدت فيك عزماً
وفي جنباتها قصف الرعود
تزيل النير عن أعناق قوم
بعصر النور أشبه بالعبيد
فكم أرقصت مهرك في صعيد
وكم أرديت خصمك في صعيد
ولما لم يعد بالكف سيف
كسرت الناي من عض القيود
فنم في راحة واعذر بياناً
كبا في رحمة الألم الشديد
لئن خزل القصيد لسان حزني
فإن بدمعتي بيت القصيد
(صورة ابراهيم هنانو)

7 - مقتطفات من كلمة الأستاذ عيسى سلامة:

كنا نرى في جهاد عمر البيطار استمراراً وتقليداً و تعبيراً عن إرثنا التاريخي الرفيع فعمر البيطار، هذا الرجل البسيط الذي كان ينظر إليه أهل بلدته نظرة عارية استيقظت نفسه الصامتة يقظة كاملة، واستجابت لإلحاح خصائصها.

لقد استجابت لصوت ضميره وقلبه وجميع إمكانياته المتواضعة غير المنظمة، وهو عارف أن نفوساً صافية كنفس يوسف العظمة وعمر البيطار ستشع أمامنا من جديد لتنير لنا الطريق.. إني أرى عمر البيطار ذا النفس الصافية، يهيب بكم إلى ذلك وإلى أكثر من ذلك إلى التسامح الاجتماعي.. إذ كنتم تحبون ذكرى عمر البيطار المجاهد من قلبكم أن تكملوا بطولاته ببطولات جديدة.

8 - مقتطفات من كلمة المرحوم المحامي توفيق هارون:

ونهضت صهيون لتحل العقد الماكرة التي عقدت لبلادها بعد الغدر والخيانة فثارت ثورتها الخالدة، وأطلقت أول رصاصة في صدر الاستعمار الغاشم وتجاوبت لصهيون على الطرف الأول من هذا الجبل العربي الأشم ثورة الشيخ صالح العلي، وما الثورتان إلا غضبة الجسم الواحد، ثورة صهيون وأخرى في الطرف الآخر من هذا الجبل، جناحان لهذا النسر الرابض على بحر العرب البحر الأبيض المتوسط، هذا المارد الذي ما فتئ يلطم الغزاة الفاتحين منذ أقدم عصور التاريخ.

رجعت صهيون إلى قواعدها تأكلها نار الشوق إلى الجهاد كالأسد ولم ينم يوم عن القيام بالواجب، وما قامت صرخة في البلاد العربية إلا كان شباب صهيون أول من يلبي النداء، وها هي معارك فلسطين والأردن والعراق وجبل الدروز، وها هي بقاع حلب وجبل الزاوية شهود عدل على ما أبلاه رجال صهيون في هذه المعارك، هذه صهيون الحصن الشمالي الأول لجبلنا الأشم هذا الجبل، بل هذا الحارس اليقظ الذي يتلفت بحذر دائم تارة إلى يمينه وأخرى إلى شماله.

نعم هذه صهيون، أما فقيدنا عمر البيطار فهو طيف من طيوف العقيدة البكر الذي انبثق عن هذه الجبال الشمّاء فصان بذلك صهيون، هذه الثورة التي لم تخذل ولم تتوقف عن الجهاد...وتابع المرحوم الأستاذ هارون كلمته متسائلاً عن من هو عمر البيطار؟

- اتصل بالوطنيين في حلب ودمشق وحظي بمقابلة الجلالة المغفور له فيصل الأول، فأكبر حركته وجهاده، وأمده بالأسلحة، فكانت ثورة صهيون، هذه الثورة التي دامت عامين وامتازت بأنها أول ثورة حدثت في سوريا، فامتدت من اللاذقية إلى حلب ومن حماه إلى أنطاكية، وفي أثنائها قاد الزعيم الكبير المرحوم هنانو فوحد المجاهدان جهودهما وحاربا جنباً إلى جنب فتركا أثراً مرموقاً في جسر الشغور وكفر تخاريم وجبل الزاوية، وفي شتى ميادين القتال، وها له أن يرى راية العدو ترفرف على بلاده، فهاجر عن فقر من عشيرته الأقربين إلى تركيا، وعاد إلى سوريا بعد أن انتخب نائباً.

9 - مقتطفات من كلمة المرحوم الأستاذ عبد العزيز أرناءوط:

وقد استهواه (يقصد المستعمر الفرنسي) أن يفاجئ البلد الساكنة في مساء ليلة مظلمة شاتية، فأمطرها بقنابله ورشاشاته والرصاص الأثيم من بنادق رجاله، وينشيه أن يرى كيف ينقشع السكان عن البلد العزلاء في جوف ذلك الليل بين المنعرجات الطبيعية من البراري، وكثير منهم حفاة حاسروا الرأس تاركين بيوتهم، كما هم يسرعون تحت وابل الرصاص بين جثث القتلى وحشرجة المحتضرين، ويسير السكان الناجون من الموت ويقضون الليل بكامله ليقطعوا بضعة آلاف من الأمتار مقابل تلك الليلة أعطيت تلك القبضة من الرجال دروساً كبيرة قاسية ظلت تتسلسل مع توالي الأيام طيلة سنوات ثلاث كم أهلكوا فيها من فيالق وردعوا من رجال.

وسيقول التاريخ أن ذاك النفر القليل من الرجال وقفوا وقفة الكبير النبيل في وجه القوى المتعدية، وإن تلك الضربة لم تكن كما ظنها المعتدي قاصمة الظهر، بل كانت محكاً للضربة الجبارة تصفع أنف العدو العاتي.

وعمر البيطار الذي كان واحداً من الذين هبّوا يدفعهم إحساس داخلي، وقد تنكبوا سلاحهم، وساروا في طريق ملاقاة العدو دون أي ضجيج، بل دون أي كلام، هذا هو عمر البيطار رمز للجندي المجهول في آلام هذه البقاع، بل وإن هذه الأنحاء من سوريا ثارت في وجه الفرنسي منذ دخوله، ولم تدفعها إليها عائلة ولا منظمة ولا حزب، وإنما الروح الوطنية الكامنة في (لاواعية) الجماعة والشعور العفوي بالكرامة هما اللذان أرسلا شرارة أولى وحلقة الابتداء في سلسلة من ثورات العزة والكرامة.

10 - مقتطفات من كلمة الأستاذ عدنان الأزهري رئيس بلدية اللاذقية:

وأنتم يا أبناء صهيون كنتم في المرتبة الأولى من مراتب الإيمان فقاومتم المنكر بيدكم ودماء شهدائكم وتدمير منازلكم، وأي منكر أفظع من الاستعمار وجيوش الاستعمار، وأي فضل أكبر من هذا الفضل الذي قُمتم به.

11 - مقتطفات من كلمة قائم مقام قضاء صهيون الأمير عبد الله التامر:

هذه البادرة بادرة التواضع في نظري هي صدقية الجهاد، بل صدقية البطولة، انسحب من المعركة دامي الجرح كبير القلب عزيز النفس، ولعمري فقد كان في انسحابه أكثر بطولة منه في إقدامه، انسحب ليعاود الكرّة لا ليسلم بالأمر الواقع، انسحب وهو يعلم أن الجولة الثانية ستكون جولة الحق وهذا ما كان، وإنني لأذكر أنه بقي يستشيرني في العودة إلى بلاده وقد بلغه رسولي ووافاه بالنتائج، ولكنه قضى نحبه قبل تحقيق رغبته بالعودة.

- تقويمنا وتكييفنا وتقديرنا لزعامة البطل عمر البيطار -

لا شك أن هذه الشهادات من لدن المفكرين السابقين ثمينة وغالية، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف استطاع المرحوم عمر البيطار أن ينتزع بحق واقتدار هذه الشهادات؟

إن مجتمع منطقة صلاح الدين كان شبه لقاحي، فيكف استطاع الزعيم المذكور أن يكلل جبينه بالغار في مجتمع يمتلئ بالشخصيات العظام أمثال: المدنية- يوسف السعيد- ديب - أبو سليمان - المجبور - مصطفى زريق - عابدين - درويش - محمد عبد الرزاق طيبا، عدا عن الشطار الأبطال أمثال: سعدية - وخيرو قصاب - الساطور - نورس طيبة - صبحي حليمة - وسعيد زريق وغيرهم.

قلنا إن مجتمع صهيون كان مجتمع الديمقراطية المباشرة، فهل تحلق الناس واستخلصوا من إراداتهم واختاروا الزعيم البيطار؟ لقد تحدثنا عن ذلك الصهيوني الذي لا يخضع إلا لله تعالى وإلى قناعاته.

يحكى أن عدة وجهاء في هذا المجتمع قرروا السفر سوية إلى اللاذقية، وكانت المشكلة الكبرى من سيجلس -مكانة ووجاهة - قرب السائق؟ أجل تجمهر غفير من الأشخاص حول منزل الرسول الكريم، وأخذوا يتدافعون للدخول إلى الرسول، عند ذلك انبرى الرسول ليقول لهم: نحن لا ندري من هم عرفاؤكم حتى نستطيع الحديث معهم، وإلا كيف نستطيع أن نتحدث مع هذا العدد الغفير.

نعم إذا كان كل فرد من صهيون أهل الزعامة، فلا بد من وجود رجل يمارس الرئاسة، رغم تعدد الرؤساء.

قال تشيرستون: إذا كان كل الناس أبطال مثل هانيبال ونابليون وسعد بن أبي وقاص، فلا بد من وجود حاكم يحكمهم، إذن لا بد من زعيم في مجتمع صهيون خاصة وقد تحركت الديناميكية طوراً جديداً هي الالتقاء مع مجتمع هنانو، هل يذهب كل الصهاونة إلى مجتمع هنانو؟ لقد اختار مجتمع صهيون المتألف اختيار التلقائية والفطرة والشفافية رجلاً منهم متميزاً بالشفافية والقناعة والبأس والبطولة والصدق هو المرحوم عمر البيطار الذي هو عمر المختار الثاني فيما عدا صورة اللحم والدم، ولربما كانت العلاقة والصداقة بين المجاهدين القسام والبيطار لها دورها وتأثيرها الخاص في هذا المجال، فقد كان الشيخ البطل أحمد أدريس من الزنقوفة صهر للقسام، ولقد اقترح هنانو في أول لقائه مع بطلنا عمر البيطار أن يتولى عمر المختار السوري عمر البيطار القيادة، فأبت صوفيته وعفته وطهارته ذلك، مخاطباً هنانو: بل العمامة لا تليق إلا بك لأنك أكثر علماً. فالمرحوم هنانو أكثر علماً ليس إلا، وهكذا كانت الزعامة بحق لهنانو، وكانت الراحة الكبرى عند البيطار:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

وتعانقت الثورتان الشقيقتان – الفضل الأكبر لطهارة هنانو ونقاء البيطار - تحرسان الثورة الأم وتسقيانها من روحهما وجهودهما واهتمامهما فتهيأ للقائدين كل أسباب المجد والخلود.

- تقييم عام للثورة ونداء لأبناء المنطقة -

قيّم أحدهم الحدث التاريخي بأنه: ((ذلك الحدث القريب منا وفي الوقت نفسه قريب مع عصره وظروفه، قريب من نفسه يعني أنه قريب من الظروف والملابسات والحافات التي أحاطت بالحدث التاريخي وكونت عقله وضميره وروحه ووجدانه))، أما قولنا قريب منّا فيقصدون من ذلك أن يكون صالحاً لأن يكون مهماز يبعث فينا الأمل والحياة والتقدم والانعراج في مراقي التطور والتقدم[1]، فهل هكذا كان حدث ثورة صهيون؟

---

[1] د. محمد عابد الجابري: نحن والتاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986، ص25

وهل هو قريب من عصره قريب من عصرنا ومن روحه وحافاته وحدثانه؟

لا شك أن الأخلاق والثقافة هما اللتان حركتا حمولة العمل الصالح الإسلامي متواشجاً مع توأمه المروءة العربية، فهل لا تزال هذه الأخلاقية صالحة في عصر الأتمتة والذره وثورة المعلوماتية والتكنولوجيا.

لا نستطيع الإطالة في هذا الموضوع وحسبنا القول إن وراء كل تقدم وتطور وانفراج وشهامة، عطاء وبذل وتضحية ومروءة وإحسان، وعند أبناء منطقة صلاح الدين الشيء الكثير من ذلك، وها نحن نرى أنهم فزعوا (هنا بمعنى نفروا) للحدث الفلسطيني عام 1948 وتطوعوا في جيش الإنقاذ واستشهد منهم الكثير، كما أنهم فزعوا (نفروا) للحدث العراقي وساعدوا وبذلوا وتطوعوا وندبوا عصرهم وظروفهم.

وليست القضية عند أبناء منطقة صلاح الدين وإخوة صلاح الدين وأبناء صلاح التلهي والتغني واجترار الحدث التاريخي، بل هم يدركون مغزى قول الشاعر: ((إلهى بني تغلب عن كل مكرمة)) : قصيدة قالها عمرو بن كلثوم.

ليست القضية في الوقوف أمام الأطلال في قصيدة قالها عمرو بن كلثوم وعند أحداث الماضي، وإنما الوقوف عند أحداثه ورموزه ومعانيه وقيمه وقوفاً متجدداً بالتفاعل والتعامل والفهم، وهذا ما لمسناه ونلمسه، فهل من مدكر؟

فالكلمات التي ألقيت في تأبين المرحوم عمر البيطار، شهادات منيعة من رجال احتلوا مراكز هامة في المجتمع السوري، ومع ذلك فقد اجمعوا على خصائص ثورة صهيون (كلمة عيسى سلامة) وأهميتها وصدقيتها وعفويتها.

ومن الملاحظ أن التغريظ قد يتضمن نقداً خفيفاً ومع ذلك فلم نجد مثل ذلك، إذ أي شيء يعوض أو يكافئ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق.

قد يتساءل متسائل ما هو تفسير أن الصهاونة حددوا موقفهم من الفرنسيين، وكانت الطلقة الأولى منهم في اليوم الثاني من دخول المستعمر البلاد.

نجد الجواب في كلمة المرحوم الأستاذ توفيق هارون فالصهاونة بإرثهم الجماعي الصافي، مثلوا أول شريحة من التجانس والصفاء في سوريا، وتكونت روحهم العامة على أساس أنهم -كما أثرنا مراراً - كانوا يعيشون الوعي العربي الإسلامي "الثورة في ليبيا واليمن وحروب البلقان إلخ....".

وفضلاً عن ذلك فاتفاقية سايكس بيكو لا تزال في الأذهان واللعبة التآمرية على الشريف حسين والثورة العربية لا زالت جرحاً بليغاً، هذه التراكمات أوضحت للصهاونة أن الفرنسيين استهانوا بكل غال ورخيص في المؤامرة المبيتة على سوريا، فهذا الاستعمار امتداد لخطاب اللنبي لصلاح الدين وهو امتداد لتصفية أوربا الممالك الإسلامية الزنجية في إفريقيا وامتداد للقضاء على إمبراطورية الهند المغولية في الهند والحرب ضد الصفويين في إيران وضد الإمبراطورية العثمانية وأخيراً الاعتداء على البلاد العربية، فهل نقول إن هذه الأحداث لم تكمن وتعتمل في ضمير الصهاونة، وهل هنالك مجال للتردد في النفور ورفض الجسم لعملية الزرع العضوي الغريب.

- قلعة صلاح الدين "موقعاً و تاريخاً" -

تدفعنا أدبيات الجغرافيا السياسية وعلومها ضرورة التماس الفارق بين عنصر الموضع وعنصر الموقع.

فالموقع هو المكان الذي يحتله العنصر في رقعة الجغرافيا، أما الموضع فهو شبكة العلاقات والوشائج التي تربطه مع التعبير الجغرافي.

ولا شك أن موضع قلعة صهيون لا يحتل هذه المكانة الهامة، فهو فوق أكمه معزولة لا تسيطر على عقدة المواصلات، لكنه بعد أن بنيت القلعة دخل في نسيج من العلاقات الهامة مع كامل المنطقة الممتدة حتى حلب وحمص واللاذقية.

وتوضيح ذلك أن تاريخ المستعمر في بلادنا تاريخ انعزال، هكذا كان اليونان وغيرهم، وبالتالي كي ما يتوفر لهم ذلك فقد أكثروا من بناء الحصون والقلاع، على العكس من تاريخنا.

هكذا كنا طيلة دراستنا لشهادة تاريخ العرب والإسلام نلحف في التساؤل أين القصور وأين الحصون في بغداد وغيرها؟ وكان الجواب لأن "الأوابد العربية لم تبن من الحجارة لعدم الحاجة لذلك".

أجل بنيت قلعة صهيون بالصخور والحصون الضخمة لتمكن المستعمر من التحصن، وهكذا تحول الموضع إلى موقع حسب مقال المرحوم جمال حمدان[1].

فما هو تاريخ القلعة وكيف تحول هذا التاريخ إلى موقع في أحداث المنطقة ونوازلها؟

ثم كيف أسبغ هذا الموقع تأثيراته على المنطقة بكاملها وإقحامها وقذفها في صلب التاريخ العربي الإسلامي، وهذا ما لمسناه -على سبيل التدليل والمثال - من استنفار البطل العربي صلاح الدين بجيشه واقتحامه للقلعة وتكلل جبينه -جرّاء ذلك - بالغار والعزة والكرامة العربية والواجب الإسلامي، إذن ما هو تاريخ القلعة؟

- تاريخ قلعة صلاح الدين - [2]

كان هذا الحصن يعرف لفترة غير بعيدة باسم:"قلعة صهيون"، وأصبح اليوم يحمل أسم:"قلعة صلاح الدين"[3]، وتقع هذه القلعة على بعد 33 كم شرقي مدينة اللاذقية، منتصبة على ارتفاع أربعمائة متر عن سطح البحر، فوق قمة صخرية ممتدة طولاً، ومؤطرة بواديين عميقي الغور يجري فيهما سيلان

---

[1] كتابه القيم عبقرية المكان

[2] نشرت هذه الدراسة عن قلعة صهيون تحت عنوان Histoires du chateau de Saladin في المجلة الإيطالية Studi, Medietoli, 30 serie, anne *,11,1969 spoleto (Italia) p. 990-1016

[3] تم ذلك بموجب القرار رقم 329 الصادر عن وزارة الداخلية بتاريخ 10 آذار 1957

يتجمعان سوية تحت سوية قسمها الغربي، وهي في منظرها العام أشبه ما تكون بمثلث متساوي الساقين، متطاول الشكل، ترتكز قاعدته في الجهة الشرقية، ويبلغ طول القلعة 740 متراً، أما مساحتها فتنوف على خمسة هكتارات.

تنقسم القلعة إلى قسمين متميزين عن بعضهما البعض: فقسم شرقي مرتفع فيه أغلب التحصينات الهامة، وقسم غربي ينخفض انخفاضاً ظاهراً عن القسم السابق[1].

وإلى الشرق من القسم المرتفع تمتد هضبة مسطحة، وكانت متصلة بالرأس الصخري الذي نهضت القلعة فوقه، ثم فصلت عنه بخندق نحت نحتاً في الصخر.

لقد حظيت عظمة تحصينات قلعة صلاح الدين ومناعتها بإعجاب الرحالة والعلماء، ويقول Lawrence بأنها: ((ربما كانت أجمل نموذج لفن العمارة العسكرية في سورية))[2].

أما Cahen فمن رأيه: ((أن أطلال صهيون قد تكون من أكثر ما خلقته القرون الوسطى إثارة للدهشة[3])).

أما Deschamps فيتطرق إلى القلعة في حديثه عن إنشاءات القرن الثاني عشر العسكرية ويكتب قائلاً: ((أنها أكبر القلاع التي بناها الصليبيون مساحة، زد على أنها أجمل شاهد لدينا عن الفن العسكري الفرنسي في القرن الثاني عشر، ولا نجد في أي مكان آخر عمارة من ذلك العصر تضاهيها قوة، وإنشاء وكمالاً في حسن التنفيذ[4])).

بعد الأحداث الهامة التي كانت هذه القلعة مسرحاً لها في القرون الوسطى، هجرت في العهد العثماني، وبقيت في طي النسيان إلى أن نبّه إلى أهميتها بعض الرحالة والعلماء.

---

[1] يشير المؤرخون العرب إلى القسم الشرقي باسم "القلعة"، أما القسم الغربي فيسمّونه "الربض"

[2] Lawrence p.158

[3] Cahen 1940 p.158

[4] Deschamps 1935 p.73

وكان الرحالة Walpole من أوائل زوارها، وقد عرج عليها عام /1850/ وترك لنا وصفاً عنها[1].

وخصص لها Rey الذي زارها في عام 1964، بحثاً قصيراً، كما رسم لها مخططاً بسيطاً[2]. ومر بها M.Hartmann مروراً عابراً عام 1881[3].

ويقف Berchem على أطلالها الباقية في التاسع من حزيران عام 1895، وينشر بالنتيجة دراسة هامة عن تحصيناتها وتاريخها[4]، ثم زارها خلال شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها Dussaud بدوره، مكرساً بحثاً مختصراً[5].

كان لا بد للعالم Deschamps ضمن دراساته عن فن العمارة عند الصليبيين، أن يهتم بقلعة صلاح الدين العسكرية، وبعد أن قام في عام /1928/ بزيارة استطلاعية، عاد ومكث في القلعة عام /1929/ لعدة أيام، يرافقه في إقامته مهندس العمارة الفرنسي F.Anus، حيث وضع هذا الأخير مخططاً لمجمل القلعة، وكان أن نشر Deschamps دراستين هامتين عن صهيون[6].

وقد أعيد خلال شهري حزيران وتموز من عام 1937 ترميم بوابة الحمام العربي بإشراف Ecochard، كما جرت أعمال أخرى بين 1939 و 1942، تحت إشراف Deschamps، وإشراف المهندس المعماري P.Coupel، فرممت بالنتيجة بعض الأبنية، كما استخرجت بعض الحفريات إنشاءات عمرانية أخرى كانت مطمورة[7].

ولا بد أن نشير أيضاً إلى أعمال الترميم والصيانة التي تقوم بها المديرية العامة للآثار والمتاحف منذ عام 1966 ولغاية يومنا الحاضر، وقد تضمنت الأعمال التالية: تنظيف وتعشيب لكافة

---

[1] Walpole III p.1595

[2] Rey 1971 p.1055, pl.12

[3] M.Hartmann p.156

[4] Berchem et fat 10I p.89, 267, IIPL. 59-62

[5] Dussaud 1897 p.12

[6] Deschamps 1930, Deschamps 1935; deschamps 1964 p.31-43

[7] Deschamps 1973

أقسام القلعة، وإظهار السور من كافة الجهات، إجراء الرفع الهندسي لكافة أقسام القلعة، تهيئة كافة الأسطح للعزل من أبراج وخزانات، عزل سطح البرج الكبير وسطح الإسطبلات بالإسمنت والسلك، عزل سطح البرج رقم 2 بعد المدخل بالبلاط وإصلاح بعض الأدراج، إنارة القسم الشرقي من القلعة من البرج رقم 1 والمدخل بما فيه الإسطبلات وخزانات المياه وبشكل نظامي.

لقد تناول البحث تاريخ القلعة، لدى دراسة تحصيناتها، فتحدث Deschamps عن أمرانها الأوائل في عهد الفرنجة، بينما اهتم Berchem على وجه الخصوص بالحقبة الإسلامية[1]، لذلك رأينا من جانبنا ضرورة كتابة تاريخ أكثر تفضيلاً عن هذه القلعة الحصينة، عبر العصور.

---

[1] Deschamps 1935; Berchem et fat 10 I p.272-283

سيغون Sigon

يروي المؤرخ اليوناني Arrien أن سلطة جزيرة أرواد كانت تمتد في القرن الرابع قبل الميلاد حتى المدينة المسماة "سيغون"، ووردت هذه الإشارة عنده في المقطع الذي تحدث فيه عن دخول الإسكندر الأكبر إلى سورية، عما 333 ق.م.

ونقرأ في ذلك المقطع أن ستراتون، ابن ملك أرواد، سلم للمنتصر المقدوني:"جزيرة أروادس، وماراتوس المواجهة لها، وهي المدينة العظيمة المزدهرة، ومعها سيغون، ومريامين، وكل ما تحت سيطرتها".

وكانDussaud أول من اقترح اعتبار أسم "سيغون" مصدر أسم "صهيون" الذي حملته قلعتنا خلال القرون الوسطى، وذلك أن الإغريق، حسبما لاحظ لم يكونوا يلفظون "الجيم"، عند وصول العرب، ثم يتساءل عمّا إذا لم يكن بالإمكان الربط بين هذا الاسم، وبين أسم أحد شوارع أنطاكية في القرن السادس الميلادي، وقد ورد ذكره عند Malalas TW. Velyyvvos وانضم Berchem إلى فرضية Dussaud, أما Seyrig فإنه، مع اعترافه بالطابع الإفتراضي لهذا الربط ويرى بأن توسع حدود أرواد الشمالية بتبعية Gabala لها -وهي جبلة الحالية - قد يؤيد صحة مثل هذا الربط بين الإسمين.

لكن هذه النظرية التي يشك بصحتها علماء آخرون، تحتاج في نظرنا لبراهين وحجج أقوى مما قدم حتى الآن، فالإعتراض الأول على هذا الإقتراض أنه لم يثبته التحري الأثري، فلم نعثر لا في القلعة ولا في النهضة المجاورة، على أي أثر من العهد الهيليني أو الروماني.

ولنقبل جدلاً بتفسير التشابه بين الإسمين كما ورد عند Dussaud، فكيف نفسر قلب حرف (I) إلى (A)؟.. إن الأمر ولا شك أعقد مما يتصور Berchem الذي يرى بأن هذا القلب حدث بسبب مخارج الأحرف المجاورة، وسوف نرى في موضع آخر أن أحد المؤرخين الأرمن، من نهاية القرن الحادي عشر أو بداية القرن الثاني عشر، ينوه برسالة يعود تاريخها إلى القرن العاشر، ويورد أسم قلعتنا كالتالي: Sehoun.

زد على ذلك أن المؤلفين الذين يكتبونها Sahaun، Saone، Seone، Sehoun، أما أغلب المؤلفين العرب فيوردون الأسم غير معرب مما لا يتيح لنا استخلاص أية نتيجة.

أما ياقوت الحموي الذي رجع إليه Berchem فإنه عندما أورد الأسم معرباً قائلاً: ((صهيون بكسر الصاد وسكون الهاء وفتح الياء وسكون الواو))، إنما كان يشير إلى القدس ولم يكن يعني قلعتنا هذه، وعندما تحدث عنها أورد أسمها غير معرب، والوحيد الذي أورد أسم القلعة معرباً هو أبو الفداء، وقد كتبه صراحة:"صهيون" بفتح الصاد وسكون الهاء وضم الياء وسكون الواو، وهكذا ينطق الأهالي اليوم أسم القلعة، مما يدل على عادة راسخة، لا بد وأن جذورها تعود إلى ماض بعيد.

يمكننا القول إذن بأن جميع كتاب القرون الوسطى يوردون الأسم Sehoun أو Sahyoun، وباستثناء وحيد قريب العهد، لم يكتب الأسم في يوم من الأيام بحرف - I - مما لا يسمح بأي ربط مع صهيون الأرض المقدسة، هذا من جانب كما يجعل من جانب آخر، كل ربط مع سيغون أمراً بالغ التعقيد، لا يسمح به التقارب الذي يمكن استنتاجه ظاهرياً بين الاسمين وإلى حين ظهور حجج جديدة في هذا الجدال، يصعب علينا الآن التأكيد بأن المكان كان مؤهولاً منذ العصور القديمة.

- العهد الحمداني [948 - 975] -

أراد الأمير الحمداني سيف الدولة -أمير حلب - نحو منتصف القرن العاشر، استكمال إخضاع الأراضي الواقعة غربي العاصي، وهي منطقة لم يكن قد تمكن بعد من التغلغل فيها، وقد تمت السيطرة على هذا الجزء من سورية بين تموز 947م وحزيران 949م. ودانت له قلعة برزيه في نهاية عام 948م تقريباً، ومن المرجح أن سيف الدولة قد اغتنم تلك المناسبة للاستيلاء أيضاً على محلة صهيون التي يرد ذكرها في نص كتبه يحيى الأنطاكي - حيث نراها - بعد ربع قرن من ذلك التاريخ، مقر حصن من حصون الحمدانيين.

وكان حاكم صهيون قبيل الفتح البيزنطي، أي قبل 975م. مملوكاً تابعاً للحمدانيين ويدعى رقطاش، وكان رقطاش هذا تركياً أوقعه اليونان في الأسر، واعتق عام 966م. فعمل أول ما عمل في خدمة سيف الدولة، ثم أصبح من أنصار ابنه وخليفته أبي المعالي شريف الملقب: سعد الدولة، وكان هذا الأخير قد وسّع حدوده حتى شملت سلطته بعض حصون المنطقة، فكان رقطاش حاكماً على صهيون من قبله.

ويبدو أن المحلة كانت منذ ذلك التاريخ موقعاً محصناً، إذ إن يحيى الأنطاكي يستعمل في تسميتها كلمة: "حصن"، لكن مما تجد الإشارة إليه أننا لا نرى اليوم في القلعة أي أثر من عهد الحمدانيين.

- الاحتلال البيزنطي [975 - 1108م] -

من المعلوم بان الإمبراطور Zimisces (واسمه عند العرب: ابن الشمشقيق) قد اجتاح قسماً كبيراً من سورية عام 975 م. فعندما كتب رسالة إلى ملك أرمينيا اشود الثالث ضمنها: ((لقد دانت لنا مدينة(جول) العظيمة، والتي يسمونها أيضاً (غابون) و بلانية، و صهيون، و كذلك برزو الشهيرة، و حتى الرملة و قيصرية لم يعد من بر أو بحر إلا و قد دان لنا بالطاعة، بإذن الخالق الأزلي)).

ويخبرنا يحيى الأنطاكي أن كليباً النصراني، كاتب رقطاش صاحب صهيون هو الذي سلم القلعة إلى يوحنا تزيميكس، ويضيف يحيى بأن الإمبراطور: ((عين ولاة الحصن فأصبحت حتى هذا اليوم في أيدي اليونان))، أمّا كليب فكانت مكافأته استلام منصب هام في أنطاكية، كما حصل على هبات وأعطيات متنوعة، وعمل ولداه أيضاً في الجهاز الإداري.

بقيت صهيون منذ ذلك الحين وحتى قدوم الفرنج إليها بين أيدي البيزنطيين، فنعلم بأن الصليبيين لدى وصولهم إلى سورية، وجدوا منطقة اللاذقية بين أيدي البيزنطيين.

وهكذا فقد مكث البيزنطيون في صهيون فترة دامت حوالى مائة وعشري سنة، وبنوا فيها خلال هذه الحقبة الطويلة تحصينات هامة، لا شك أنها تبدو اليوم في حالة سيئة بالمقارنة مع ما شيّد في عصر الفرنج، لكنها حتى بوضعها الحالي، يمكن أن تساعدنا على تخيل صورة القلعة أثناء دخول الفرنج إليها، كما يمكن أن تخبرنا عن مدى اتساع الإنشاءات التي أقيمت آنذاك.

كان الحصن في ذلك العهد يحتل تقريباً مجمل الرأس الصخري الذي قدر للفرنج أن يبنوا قلعتهم من فوقه فيما بعد، ويبدو أن البيزنطيين كانوا قد شيّدوا أهم تحصيناتهم في القسم الشرقي، وتركوا القسم الغربي لمنازل السكن حيث لا نشاهد اليوم آثار تحصينات عسكرية من هذا العهد، ولكننا بالمقابل نجد بقايا كنيسة كانت ترتفع وسط الأبنية السكنية.

ونشاهد اليوم بقايا التحصينات البيزنطية في القسم المرتفع منها، فكان ينهض فيه برج كبير مربع طول الضلع فيه ثلاثون متراً، وعند كل زاوية قسم بارز مربع أيضاً، وفي وسط الواجهة الشرقية قسم بارز مخمس الزوايا، كما كان من الغرب سور للحماية ما تزال بعض بقاياه ماثلة للعيان، ثم نشاهد إلى الجنوب والشرق من البرج الكبير بقايا سورين متوازيين، فإذا مضينا أبعد من ذلك باتجاه الشرق، وجدنا سور تحصين يصل من واد لآخر، وهو يعتبر دون شك الحد الشرقي للحصن البيزنطي، وقد زود ذلك السور بأكثر من بروز مربع، ويتناوب كل بروز مع برج صغير مخمس، وقد بنيت جميع هذه الإنشاءات العائدة إلى العهد البيزنطي بأحجار صغيرة غطست بلبن كثيف، وهي بذلك تتمايز بوضوح عن الإنشاءات الفرنجية.

- الاحتلال الفرنجي [1108 - 1188م] -

لا نعلم على وجه التحديد تاريخ احتلال الصليبيين للقلعة، إذ لم يذكر هذا الحدث، لا في المصادر الفرنجية ولا في المصادر العربية، وربما كان ذلك في عام 1108م. عندما احتل الفرنج مدينة اللاذقية وضواحيها، هذا وقد ارتبط بدء تواجد الفرنج ارتباطاً وثيقاً بالمشاكل التي تثار عند بحث وتحديد شخصية أول حاكم للقلعة.

في جميع الأحوال، فقد وقع الاحتلال حتماً قبل عام 1119م. وهو تاريخ وفاة الحاكم المذكور، والذي لقب دون موارية "صاحب صهيون"، فنستطيع القول بأن الفرنج قد تسلموا القلعة من البيزنطيين ما بين 1108و 1119.

نتناول الآن إذن المشاكل التي تثار حول ذلك الشخص الذي يصفه مؤلف عربي بأنه "حاكم صهيون" عندما أرّخ لوفاته، كان أسمه روبير بن فولك، ويظهر هذا الاسم للمرة الأولى في عام 1108م، وذلك في أمر كافأ بموجبه نانكريد إيطاليين من مدينة بيزا، حيث وهبهم بعض الأبنية في اللاذقية وأنطاكية، ثم بعد عدة سنوات من ذلك التاريخ، وعلى وجه التحديد عام 1114م، قام بتقديم هبة إلى إحدى الكنائس، وقد ورد أسم روبير في هاتين

الوثيقتين دون ذكر أسم القلعة التي يحكمها، وتحدثنا المصادر في عام 1114م عن روبير ذاك، وقد لقب بـ"الأبرص"، وذلك في مقطع من كتاب أسامة بن منقذ الشهير.

يروي لنا هذا المؤلف أنه في تموز 1115م، طلب كل من طغدكين أتابك دمشق، ونجم الدين ايل غازي أمير مدين التحالف مع الفرنج، ضد برسق بن برسق أمير الموصل، الذي كان يهدد سورية آنذاك، وقد تم الاتفاق بالقرب من بحيرة حمص، ثم اجتمع المسلمون والصليبيون قرب مدينة أفاميا، قبل أن يسيروا معاً لمقاتلة أمير الموصل، وحصلت بهذه المناسبة صداقة بين روبير وطغدكين.

يقول أسامة: ((وكان روبير صديقاً لأتابك طغدكين صاحب دمشق ذلك الوقت، وكان مع نجم الدين ايل غازي لما اجتمع بالإفرنج في أفاميا حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق، فقال هذا الأمير الأبرص لأتابك طغدكين: ((ما أدري بأي شيء أضيفك، ولكن أبحتك بلادي أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كل ما وجدوه، بل يسبوا ولا يقتلوا، والمال والغلة لا يأخذون، ذلك مباحاً لهم)).

نرى أن روبير في هذه القصة لم يكن له من لقب إلا الأبرص، لكننا سنجد أيضاً بأن أسامة يتحدث عن موت روبير بتاريخ 1119م، فيصفه آنذاك بلقب "صاحب صهيون".

وبعد شهرين تقريباً من التحالف بين الفرنج والمسلمين، هاجم أمير الموصل مدينة زردانا التي كانت منذ 1110م بين أيدي الصليبيين، فتوجه أمير أنطاكية على الفور مع عساكره وقضى على برسق قرب سرمين في 14 أيلول 1115م.

ونرى روبير بن فولك في هذه المعركة على رأس قوة احتياط، مساهماً في سير القتال، حتى لقد عدّ من بين أبطال ذلك اليوم، ونعلم بأن روجيه أمير أنطاكية قد استولى فيما بعد على قلعة بلاطنس في أيار 1118، واستخلصها من جماعة الجبليين، وأتبعها لأملاك حاكم صهيون. في السنة التالية، نرى روبير مرة أخرى،

مشتركاً في معركة تل دنيت، كما نحضر وفاته، وهنا، تتعقد مسألة تحديد هوية هذا الشخص.

إن Gautier يشير إلى الشخص المذكور في تأريخه لهذه الأحداث بأسم: روبير بن فولك، أما ابن الهديم فيدعوه: روبير الأبرص، حاكم زردانا. بينما يقول أسامة بن منقذ: روبير الأبرص حاكم صهيون، وبلاطنس، والمناطق المجاورة، نقف بادئ ذي بدء لنمحّص الأحداث المروية.

وقعت معركة تل دنيت في 14 آب 1119م بين الفرنج من جهة، وايل غازي وطغدكين من جهة ثانية، وقد لعب روبير فيها دوراً بارزاً، إذ قام بهجوم على رأس فرقة من الخيّالة شتت عساكر المسلمين، ثم سارع بعد ذلك لنجدة مدينة زردانا، ولكنه علم في الطريق إليها أنها قد استسلمت، فعاد أدراجه إلى تل دنيت، وهناك اصطدمت فرقته من جديد مع عساكر المسلين، لتكون الهزيمة من نصيبه هذه المرة، وقد تشتت فرقته.

بعد خمسة أيام من المعركة المذكورة (أي في19 أو في 20 آب)، كان روبير يتجول على حصانه فوقع عنه وجرح، فوجده بعض سكان المنطقة المسلمين جنوبي غربي حلب، وأسروه، وجاؤوا به إلى ايل غازي.

ويتابع أسامة بن منقذ القصة قائلاً: أسر المسلمون روبير أمير صهيون وبيلاطنس والمناطق المجاورة، قطع روبير على نفسه عشرة آلاف دينا فقال ايل غازي: ((امضوا به إلى أتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة))، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب، فلما رآه مقبلاً قام، شمر أذيال قبائه في البند، وأخذ سيفه وخرج إليه وضرب رقبته، فنفذ إليه أيل غازي يعتب عليه وقال: ((نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان وهذا كان قطع على نفسه عشرة آلاف دينار، نفذته إليك تفزعه لعله يزيدنا في القطيعة فقتلته...قال: أنا ما أحسن أفزع إلا كذا...))).

وكان من رأي Cahen أن الشخص المدعو روبير، والذي نحن بصدده في هذا المجال، لم يكن في يوم من الأيام، كما ذكر أسامة: حاكم صهيون، بل هو حاكم زردانا، كما جاء عند ابن

العديم، ومرد الخلط والخطأ في رأيه أن أسامة كتب ما كتب في سن متأخرة، وهذه الأخطاء إنما تقود إلى النسيان، لأن الأحداث التي يرويها تعود إلى سن الشباب، نسب قلعة صهيون إلى روبير، وكان في الحقيقة يريد أن يتحدث عن قلعة زردانا.

رد Deschamps على رأي Cahen مفنداً إياه بالحجج التالية:

((إن أسامة على وجه العموم دقيق في رواياته، أما الألقاب التي يقدمها دون لبس عن روبير (حاكم صهيون، وبلاطنس والمناطق المجاورة)، فتبين أنه يعرف ذلك الشخص معرفة جيدة، ومن جهة أخرى، فلا محل للشك بالمعلومات التي أوردها ابن العديم، فهل نقبل بوجود شخصين يحمل كل منهما أسم روبير؟)).

ينفي Deschamps مثل هذا الأحتمال، لأن ابن العديم وأسامة يرويان بالطريقة نفسها أسره وموته، ولقبه عند الاثنين: الأبرص.

لذلك يرى Deschamps أن روبير كان في الوقت ذاته حاكم صهيون، وبلاطنس، وزردانا، ويقول بهذا الصدد: ((صحيح أن صهيون وزردانا تفصل بينهما مسافة 75 كم تقريباً ولكن حكاماً آخرين من الأرض المقدسة كانت لهم مقاطعات بمثل هذا الاتساع)). كما يلفت الانتباه إلى أن الازدواج نفسه ورد أيضاً عند الحديث عن ابنه غليوم.

باختصار ربما كان روبير حاكم زردانا عند احتلال تانكريد لها نحو 1110، ولا يمكن أن يؤكد إن كان قد أصبح حاكم صهيون، أو إن كان قد حكمها قبل الفرنج، ومن جهة ثانية فإن بلاطنس قد سلمت، كما رأينا، إليه بعد ذلك، فمن غير المعلوم تاريخ احتلالها من حاكم صهيون بتاريخ 1118، ومن الطبيعي التالي، عند الحديث عن موته بتاريخ 1119، أن يلقبه أسامة: "حاكم صهيون وبلاطنس".

توفي روبير فخلفه ابنه غليوم الذي أصبح في بادئ الأمر أميراً على صهيون وبلاطنس، ثم على زردانا في عام 1121، ولدى استعادة الصليبيين للقلعة، نراه يطلب نجدة ملك القدس لفك الحصار عن زردانا التي كان يهددها المسلمون، ثم نراه في عام 1131 يشترك في الحلف الذي شق الفرنج وجعلهم يحاربون

بعضهم بعضاً ألا وهو الحلف الذي نظمته أليكس أرملة أمير أنطاكية ضد ملك الفرنج في القدس، ويتحدث Guillaume detyr عنه في هذه المناسبة باعتباره "حاكم صهيون".

وربما كان وفاة غيلوم بن روبير عام 1132 خلال المعارك التي دارت وقتئذ، قرب روجيا، بين عساكر ملك القدس وعساكر أمير طرابلس، ولا تشير المصادر اللاتينية إلى وفاته، لكنها تخبرنا بأن أرملته بياتريس تزوجت، بعد قليل من تلك الأحداث، من جوسلان الثاني أمير أورفا.

فإلى من تنسب إذن بناء التحصينات الفرنجية التي نراها اليوم في صهيون؟ يعتقد Deschamps أن ذلك قد تم في عهد كل من روبير وغيلوم، ويقول بهذا الصدد: ((كانا بطلين حقيقيين من أبطال المغامرات تعلوا أمجادها الحربية علو أسوار ذلك الحصن الذي لا يشك في أن أحدهما رفعه، إن لم يكن كلاهما)). كما يقول أيضاً: ((لا يستبعد أن تكون القلعة قد دعمت بأمر من ملك القدس بودوان الثاني بعد زيارته لأنطاكية، إذ قدر أن من المناسب تحسين دفاع حصن إمارة أنطاكية)).

وهنالك دلائل عديدة تشير إلى أن إنشاء التحصينات الفرنجية في صهيون قد دام سنين عديدة، ولقد كان، يوضوح مشروعاً طويل الأمد، وباهظ التكاليف.

لقد حكم روبير وغليوم مقاطعات مترامية، ويمكننا أن نعود بتارخ إنشاء الأعمال الكبرى في القلعة إلى ما بين 1108 و 1132 يبقى في جميع الأحوال، الأمر الأساسي المؤكد وهو أن الصليبيين هم الذين بنوها، ونرى حتى اليوم على جدرانها عدة أحرف لاتينية إشارة إلى أسماء متعهدي التنفيذ، مع شعارات عسكرية فرنجية مختلفة (رماح وبيارقها، بلطات، إلخ..) ونشير أيضاً إلى أن في القلعة حجراً حفر فوقه صليب، ونقش عليه باللاتينية كتابة ناقصة: Aplena...(وهذا بالتأكيد القسم الأخير من عبارة: يا ممتلئة نعمة) كما توجد أجزاء من عناصر زخرفية فرنجية، زد على ذلك، فإن هندسة العمارة فيها فرنجية الطراز دون أدنى شك، وإن

كانت تختلف في هندستها عن غيرها من قلاع الجماعات العسكرية.

ويكتب Cahen قائلاً: ((تمثل قلعة صهيون في قسمها الفرنجي آية من الآيات النادرة التي خلفتها عمارة الفرنج في القرن الثاني عشر، قبل دخول التعديلات للعمارة العسكرية في القرن الثالث عشر)).

وتعود قلعتنا في حقيقة الأمر إلى القلاع الإقطاعية، التي يرجع تاريخها إلى بداية الاحتلال الفرنجي، ويقول Deschamps: ((يبدو أن صهيون كانت من أهم القلاع العسكرية التي بناها الصليبيون مع بداية احتلالهم للبلاد، وقلعة الحصن التي وسعت في القرن الثالث عشر لم تكن في ذلك الحين أكثر من برج بسيط بالمقارنة مع قلعة صهيون المنيعة)).

غالباً ما يدور الحديث عن حماية أنطاكية كلما ورد ذكر بناء الفرنج لقلعة صهيون، وذلك لأنها تؤمن الإشراف على الطريق المتّجهة من الشاطئ نحو وادي العاصي، فلا يستبعد، والحال هذه، أن يكون حكامها إنما أرادوا بتحصينها توفير مركز دفاعي متقدم جنوبي أنطاكية، لكن من المناسب مع ذلك أن نشير إلى أن صهيون لا "تشرف"، بالمعنى الدقيق للكلمة، على طريق أنطاكية، مثلما كانت قلعة الحصن تشرف على وادي النهر الكبير الجنوبي، أو كما كانت المرقب تشرف على طريق الشاطئ.

وإذا رجعنا إلى الخريطة تهيأ لنا بأن حصننا قريب إلى حد كبير من الشاطئ، ومن وادي النهر الكبير الشمالي، ولكنه، لوجوده في تلك المنطقة الجبلية الشديدة الوعورة، كان في "منأى" عن طريق المواصلات.

لا شك في أن موقعه كان حماية له، غير أن ذلك الموقع كان يمنعه بالمقابل من أن يلعب دوراً هاماً، إذا ما هدد المنطقة خطر ما، وسوف نرى بعد قليل كيف أن جيش صلاح الدين أمضى يومين، بعد خروجه من اللاذقية، للوصول إلى قلعة صهيون عبر الوهاد، والمنحدرات، الوديان الضيقة، ويصعب علينا، بالتالي، أن نتصور كيف يمكن أن تكون مبادهة حاميتها في الهجوم لو وقع

غزو مفاجئ، هذا مع العلم بأننا لا نشاهد تلك الحامية على مدى تاريخها الطويل، تسارع في يوم من الأيام لنجدة أنطاكية.

نعود إلى بناء الحصن في عهد الفرنج، ويبدو لنا أن ذلك العمل قد أنجز على مرحلتين، رأى الفرنج في المرحلة الأولى أن من الأفضل الاكتفاء، من أجل تحصيناتهم، بالقسم المرتفع من القلعة، تاركين القسم المنخفض لمنازل السكن كما فعل البيزنطيون من قبلهم، وهكذا كان، فبنوا في القسم المرتفع تحصينات هامة منيعة، هي تحديداً، أبراج مربعة مستديرة، ويربط بينها سور منيع، وتنتصب معظم تحصينات الفرنج وسط القسم المرتفع، ولا بد وأن يكون الدافع لهم لاختيار ذلك الموقع هو بقايا تحصينات البيزنطيين فيه، ثم تركوا حدود القلعة من الجهتين الشمالية والجنوبية على حالتها منذ عهد البيزنطيين لأن الوديان كانت تحميها، وأما الجهة الشرقية فكانت أقل مناعة بسبب ارتباطها بالهضبة المجاورة، ولذلك حفروا خندقاً في الصخر ليفصلوا بذلك القلعة عن الهضبة المذكورة، تاركين في وسط الخندق عموداً يرتكز عليه جسر متحرك يصل الهضبة بالباب المفتوح في الواجهة الشرقية للقلعة.

وكانت الواجهة الغربية أيضاً ضعيفة المناعة، فقرر الفرنج أن يحفروا خندقاً آخر هناك ليفصلوا تحصينات القسم الشرقي الغربي فصلاً تاماً.

ولكنهم عدلوا على ما يبدو، عن فكرتهم بعد أن شرعوا بالحفر فمن يدرس هذا الخندق يلاحظ بوضوح أنه عمل غير مكتمل.

إن الحواف الصخرية للخندق تبدو ظاهرة للعيان في الوسط، ولكن من المؤكد بأن أعمال الحفر لم تصل إلى الطرفين الشمالي والجنوبي، فما الذي حدا بالفرنج إذن إلى تعديل رأيهم؟.

أهو شعورهم بأن حفر الخندق الشرقي كان شاقاً للغاية، ولذلك عدلوا، بعد المباشرة، عن حفر الخندق؟..أم تراهم تبينوا بأن القسم الشرقي غير كافٍ لحامية القلعة، فمسّت الحاجة لتوسيعها بضم القسم الغربي إليها؟.. على أي حال، من الواضح أن الفرنج توقفوا عن حفر الخندق الغربي، لسبب أو لآخر، في لحظة من اللحظات، وردموا منه ما كان قد حفر فعلاً.

ونصل الآن إلى المرحلة الثانية من بناء القلعة الفرنجية، فبعد التوقف الخندق الثاني، أصبح القسم الغربي من القلعة مرتبطاً بقسمها الشرقي، وحيث أن القسم الغربي كان عرضة للخطر، وخاصة في الشمال، نظراً لقلة الانحدار، كان لا بد من تحصينه وتدعيمه، فأخذ الصليبيون يرفعون فيه الأبراج والأسوار المحصنة، لكننا نلاحظ أن هذه الأسوار، هذه التحصينات، ليست بضخامة ومناعة ما شيّد في القسم الشرقي، مما قد يدل على أن بناءها تم بسرعة، ربما في وقت كان الفرنج يتوقعون فيه هجوماً من المسلمين، خاصة وأنهم لا بد وأن تكون قد وصلتهم أنباء المعارك الظافرة لصلاح الدين.

لا نعلم شيئاً ما عن الحصن في عهد الفرنج بعد وفاة غليوم، اللهم سوى أسماء بعض الحكام من سلالة روبير الذي تحدثنا عنه مطولاً.

ويكتب Cahen بهذا الصدد: ((مناعة الحصن، والدور الذي لعبه غليوم حاكم صهيون في القتال الناشب بين أليكس والملك فولك عما 1131 ثم زواج أرملة غليوم من جوسلان الثاني أمير أورفا، كل هذه التفاصيل تشهد على أهمية تلك الإمارة، رغم أن أسم أصل العائلة التي كانت تحكمها غير معروف، هذا ونجد من وقت لآخر، أسماء بعض ورثة روبير وغليوم في أسفل بعض الوثائق، حيث كانوا يضعون تواقيعهم لتصديق توقيع أمراء أنطاكية، وإذا ما رجعنا إلى تلك الوثائق وجدنا أن غليوم أعقب خليفة له شقيقه Gareton، وقد ورد أسمه في وثائق تعود إلى 1131، و1140، 1153، 1155، ثم توفي قبل 1175، وقد أنجب عدة أبناء: Roger، زوج امرأة كانت تدعى Avicia، وقد ورد ذكره في 1170 و1194. ثم Garenton، Josselin، وقد ورد ذكرهما في 1194، وأنجب Roger ولدين:

Hathieu وقد ورد ذكره في 1183، وتوفي قبل 1193 و Pascal، وكان رجل دين، وقد ذكر عام 1193، و1200، و1209.

مما تقدم، يمكننا استنتاج ما يلي: كان Robert أول حاكم للحصن في عهد الفرنج، وتولى الحكم حتى 1119، وخلفه ابنه

Guillaume الـذي دام حكمـه مـن 1119 حتـى 1132، ويرجـع أن Garenton شقيق Guillaume، حكم من بعده منذ 1132 وحتى 1170 تقريباً، وحكم Roger، على ما يبدو، بدءاً من 1170 وحتى الفتح الإسلامي في عام 1183، اللهم إلا إذا كان قد عين محله Mathieu في عام 1183، أما باقي أفراد الأسرة فيرد ذكرهم في تواريخ لاحقة لوصول صلاح الدين، حيث لم يعد لهم بالتأكيد من مقام في الحصن.

لقد بقي الفرنج نحو ثمانين عاماً في صهيون، ولكن المصادر لا تقول شيئاً عن حياة الحصن طيلة تلك الفترة، أما القلعة فقد حافظت على مناعتها وقوتها حتى نهاية احتلال الفرنج.

ومما كتبه المؤرخون الذين كانوا برفقة صلاح الدين يصفونها في الحال التي كانت عليها لدى اقتراب عساكر المسلمين، قول ابن شداد: ((وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعاً أو أكثر، وهو نقر في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سور دون ربضها، وسور دون القلعة، وسور القلعة)).

أما عماد الدين الأصفهاني فيقول: ((وهي قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين بها محيطين من جانبين، والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق، وسور وثيق، والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب)).

- صلاح الدين يحتل القلعة -
- (26 - 29 تموز 1188م) -

بدأ صلاح الدين الأيوبي حملته الكبرى ضد الصليبيين في عام 1187، فغادر مصر وسار قاصداً فلسطين، وبعد احتلال فلسطين تغلغل في سورية عما 1188، بحيث وصل إلى طرطوس في الأيام الأولى من شهر تموز، ثم اتجه شمالاً مغادراً جبلة في العشرين من تموز، ودامت معركة للاستيلاء على اللاذقية من 21 وحتى 23 تموز.

غادر السلطان صلاح الدين اللاذقية يوم الأحد الواقع في 24 تموز وسار على رأس جيشه باتجاه قلعة صهيون، يرافقه في تلك الحملة ابنه الظاهر غازي وجيشه.

ونحن في تأريخنا لتفاصيل احتلال صهيون سوف نرجع إلى المؤرخين الثلاثة الذين كانوا مع السلطان وهم عماد الدين الأصفهاني (1125 - 1200) وابن الأثير (1189 - 1231) وابن شداد المتوفي سنة (1234).

يقول عماد الدين: ((وأخذنا على سمت صهيون، وهو حصن يفوق الحصون، وطلبناه كما يطلب الدائن المديون، وكان الطريق إليه في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، ومضايق غير رحاب، وأوعاث وأوعار، وإنجاز وأغوار، وقطعنا تلك الطرق في يومين، ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الإثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء)).

إذن، في يوم الثلاثاء الواقع في 26 تموز وصل السلطان والملك الظاهر إلى صهيون، وخيما مع جيشهما بالقرب من القلعة، غالباً على المرتفع الذي يقابلها من جهة الشمال، والذي يحمل اليوم أسم "جبل التون".

ويروي ابن شداد أنه عند وصول المسلمين إلى صهيون ((كان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته قد وقع، فاستبشر المسلمون بذلك وعلموا أنه النصر والفتح)).

كان صلاح الدين وأبنه، في مخيمهما، فوق جبل التون مقابل الواجهة الشمالية للحصن، ولا بد وأن عناصر استطلاعية قامت بإطلاعهما على أوضاع الواجهة الجنوبية، ونتخيل أنهما راحا يتأملان القلعة من موقعهما، ويدرسان تحصيناتها في سبيل وضع أفضل خطة لمهاجمتها واحتلالها، ويبدو أنهما استحسنا الدخول إليها من الواجهة الشمالية للقسم الغربي، فالوادي من هذه الجهة قليل الإنحدار، والصعود منه أسهل من أي مكان آخر، زد على ذلك أن السور في هذه الواجهة لم يكن من الضخامة بحيث لا يمكن اقتحامه، وهو في القسم الأكبر منه خال من الأبراج الدفاعية.

تقرر بعد هذه الاستطلاعات أن يقود الملك الظاهر الهجوم من هذه الجهة، تحسباً لإمكانية احتشاد جميع رجال حامية القلعة في تلك الناحية، كان لا بد من إيجاد طريقة تمنع ذلك الاحتشاد، فتقرر أن ينصب السلطان منجنيقاته على الهضبة في الواجهة الشرقية، لإشغال أكبر عدد ممكن من رجال الحامية الصليبية من هذه الجهة.

بدأت المعركة في يوم الأربعاء الواقع في 27 تموز 1188، حيث غادرت الفرق الإسلامية باكراً جبل التون وتحركت حسب الخطة المرسومة، فنقل صلاح الدين جيشه إلى الهضبة الشرقية ونصب فوقها أربعة منجنيقات، أما الملك الظاهر فنصب منجنيقين على سفح الجبل مقابل الواجهة الشمالية للقسم الغربي.

ويقول ابن الأثير إ: ((إن الوادي فيه ضيق في بعض المواضع بحيث أن حجر المنجنيق يصل إلى الحصن))، والوادي هنا، أضيق فعلاً مما هو عليه في أي مكان آخر، ويتابع ابن الأثير: ((فنزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه)).

والمنجنيق آلة حربية كانت رائجة في القرون الوسطى، وكانت تستعمل لرمي الحجارة عن بعد إلى مسافة تزيد عن الألف متر، وما نزال نرى داخل القلعة عدداً من الحجارة التي رميت، ويتراوح وزن الواحدة منها بين 50 و 300 كغ فلا غرابة أن تحدث حجارة بهذا الوزن عندما ترمى عن هذا البعد، أضراراً

كبيرة في السور، خاصة وأنه، كما سبق وذكرنا، ليس على هذه الضخامة في ذلك الموضع.

وقد تحدث عماد الدين مشيداً بالدور الكبير للملك الظاهر غازي في المعركة، رافعاً آيات التقريظ لصلابته وإقدامه، فكتب يقول: ((كان معه الرجال الحلبية والمنجنيقية والجرخية والجاندارية والخراسانية، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وكسب الذكر والثناء، وأنار في فضاء الفضائل وأضاء))، ثم يتابع موضحاً: ((ودام القتال من جانبه ومن جانب السلطان)) مما يبين بجلاء أن المعركة كانت على جبهتين كما سبق وألمحنا.

وقد استمرت المعركة طيلة نهار اليوم التالي، أي يوم الخميس الواقع في 28 تموز، يقول عماد الدين: ((وما زالت المجانيق من جانبه (أي من جانب الملك الظاهر) وجانبنا ترمي، والحنايا بسهام المنايا تصمي، حتى قتلت مقاتلة الحصن، وهان بما دب فيه من الوهن)).

ويخبرنا ابن الأثير عن استخدام آلات حربية أخرى غير المنجنيق، فيقول: ((ودام رشق السهام من قسمي اليد والجرخ والزنبوك والزبار، فجرح أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع)). ويروي ابن شداد أنه: ((هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي إليها منها))، ومما يجدر ذكره أننا نرى اليوم السور الشمالي من القسم الغربي جزءاً كبيراً مهدماً، وإلى مسافة أبعد باتجاه الغرب ترميمات تدل على أن السور أعيد بناؤه من بعد تهديم، فتلك إذن الواجهة التي تعرضت لرمي منجنيقات الملك الظاهر، كما وتوجد ترميمات أخرى في الواجهة الشرقية يمكن أن تدلنا على الأضرار التي ألحقتها منجنيقات السلطان.

أطل صباح يوم الجمعة الواقع في 29 تموز 1188، فرأى السلطان أن الأضرار التي ألحقتها الآلات بالأسوار وبالنفوس قد سهلت احتلال القلعة، فأعطى الأمر بالهجوم العام.

إن العلماء الأجانب يقعون في الاضطراب عند سردهم لأحداث اليوم الأخير من المعركة، وهو اليوم الذي احتل فيه

صلاح الدين قلعة صهيون، وسبب الاضطراب ما يخيل إليهم من وجود تناقض في رواية المؤرخين العرب الثلاثة المرافقين للحملة، ثم إنهم على ما يبدو، لهم يهتموا الاهتمام الكافي بتحري حالة الحصن على أرض الواقع، وبالتالي فلم يتمكنوا من مطابقة واقع الآثار المتبقية، مع شهادة المؤرخين العرب المذكورين، ولذلك تراهم يقدمون فرضيات لا نظنها إلا خاطئة، حول دخول المسلمين إلى الحصن، ونرى أن الروايات الثلاث لا تتناقض، بل تكمل بعضها بعضاً، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المعلومات التي يمكن أن نستقيها من الدراسة المتأنية لوضع الحصن اليوم.

هذه أولاً رواية ابن شداد: ((ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخر عزم السلطان، وتقدم وأمر المنجنيقات أن تتوالى بالضرب، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على الأسوار التي للربض، واشتد الزحف، وعظم الأمر، وهاجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون، وانضم من كان في الربض إلى القلعة يحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ونهب الباقي)).

وهذا ما رواه عماد الدين: ((وأصبحنا بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة وطما بحر العسكر بأمواجه الزاخرة، وازدحم الناس في الزحف، كأنهم في الحشر بالساهرة، وهاج الشباب، وماج العباب، وتسابق ذوو الجرأة والقوة، وتلاحق ذوو الحمية والنخوة، وكان في قرنة الخندق عند خرقه إلى الوادي موضع يكتمل تعميقه ولم يتم توثيقه، فتطرّقوا من تلك القرنة إلى القمة وتسوروا السور، وتسلقوا وتقلعوا إلى القلعة، وتعلقوا وتملكوا الذروة، وأمسكوا العروة)).

أما ابن الأثير فيقدم إلينا الرواية التالية: ((وزحف المسلمون إليهم ثاني جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل وقد أغفل الفرنج أحكامها فتسلقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول)).

نستطيع إذن، بالاستناد إلى هذه النصوص، أن نتصوّر سير المعركة التي دارت في 29 تموز 1118 على الشكل التالي: بينما كان السلطان يشاغل قسماً من الحامية من الجهة الشرقية، بدأ جيش الملك الظاهر بمغادرة الموقع الذي نصب فيه آلاته، فنزل من الجبل، ثم راح يتسلق منحدر الوادي وصولاً إلى سور القسم الغربي.

وقد أوضح ابن شداد أنه: ((رقي المسلمون على الأسوار التي للربض))، وهكذا تم دخول رجال الظاهر إلى القسم الغربي من الثغرات التي فتحتها أحجار المنجنيق في السور، وكما رأينا فإن هذا القسم كان مخصصاً لمنازل السكن، فلا عجب إن كان الأهلون هناك قد فوجئوا بالهجوم في ساعة إعداد الطعام، ونرى عند ابن شداد بوضوح أن الفرنج في الربض، بعد أن فوجئوا باحتلاله، يسارعون على عجل باتجاه القسم الشرقي من القلعة.

وأصبح هم المسلمون بعد الاستيلاء على الربض، أي على القسم الغربي، ملاحقة الفرنج، والهجوم على القسم الشرقي، وكان كما قلنا، أكثر مناعة، وأقوى تحصيناً، فلو أن الخندق الفاصل بين القسمين كان قد حفر كلياً، إذن لأصبح العبور من قسم إلى قسم متعذراً، وهو ما ينطبق على ما أورده عما د الدين كل الانطباق: ((وكان في قرنة الخندق عند خرقه من الوادي موضع لم يكتمل تعميقه)).

هذا وكنا قد أوضحنا أن الخندق الغربي عمل لم يكتمل، وأنه لم يحفر عند الأطراف على الإطلاق، وهناك تشاهد صخور كبيرة لم تعمل فيها يد الحفر، فهذا تفسير قول ابن الأثير: ((فتسلقوا منها بين الصخور)).

سيطر المسلمون إذن على القسم الغربي، وبعد ذلك اجتازوا تلك الصخور التي كانت تغلق أطراف الخندق، ودخلوا إلى القسم الشرقي.

ولم يفهم العلماء الأجانب أن المقصود هو الخندق الغربي غير المكتمل، وليس الخندق الذي يشاهد اليوم في الشرق، لذلك أساءوا فهم ومطابقة روايات المؤرخين العرب.

نتابع الآن وصف المعركة بعد دخول المسلمين إلى القسم الشرقي حيث يخبرنا ابن شداد: ((استدارت المقاتلة حول أسوار القلعة، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان)).

أما ابن الأثير فيروى أن المسلمين بعد أن وصلوا إلى السور الأول: ((ملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر، وغير ذلك، واجتمع الفرنج بالقلة -أي في البرج الكبير - التي للقلعة، فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا وطلبوا الأمان)).

ويتابع عماد الدين الرواية واصفاً حالة القلعة بعد وصول المسلمين إلى داخلها فيقول: ((واستولى على أهلها الرعب، واستشرى بهم الكرب، فتنادوا إلى القلعة، وتفادوا من الخوف، لا من القلعة، وملكت عليهم سلسلة أسوار بما فيها متاع وشوارع، وغنم وأبقار، وصاحوا الأمان وبذلوا الإذعان، فما أمنوا على المال والنفس حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب وسير إليهم الدواب وما استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار وجبي الدرهم والدينار وعم الكبار والصغار وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار)).

ويروى ابن شداد استسلام القلعة على الصورة التالية: ((وصل خبرهم إلى السلطان فبذل الأمان وأنعم عليهم على أن يسلموا بأنفسهم خمسة، ومن الصغير ديناران وسلمت القلعة)).

ويقول عماد الدين بعد ذلك: ((سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ما حواه من ذخائر وأموال إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمار تكين أسد العرين وأمير المجاهدين)).

ثم يروى لنا كل من عماد الدين وابن الأثير أن السلطان صلاح الدين قضى مع ابنه ليلة 29 تموز في قلعة صهيون، وتابع سيره في صبيحة اليوم التالي، قاصداً قلاعاً أخرى لاحتلالها، غير أن ابن شداد يقول بأن السلطان بقي في صهيون حتى انتهى جنوده من احتلال القلاع المجاورة، وعلى وجه الخصوص، قلعة بلاطنس (المهالبة)، أي حتى صباح 2 آب 1188.

- منكورس وخلفاؤه (1188 - 1280) -

حكم الأمير ناصر الدين منكورس قلعة صهيون مدة إحدى وأربعين سنة، وكان قبل ذلك صاحب قلعة أبي قبيس التي تطل على وادي الغاب شمالي مصياف، وكان سليل إحدى العائلات الإقطاعية.

يخبرنا ابن الأثير أنه حصّن صهيون: ((وجعله من أحسن الحصون))، ثم نراه، بعد وفاة صلاح الدين عام1193، وقد أصبح صاحب صهيون وبرزية، وقد أعلن بتاريخ 10 شباط 1193، ولاءه لابن صلاح الدين وخليفته، الملك الأفضل على شريطة أن تبقى صهيون له.

ويتحدث عنه المؤرخون في عام 1203، باعتباره صاحب صهيون، وذلك بصدد رسالة وردت منه بذلك التاريخ، ويطلع فيها المسلمين على تحركات ملك الأرمن في منطقة أنطاكية.

كما استقبل منكورس في قلعة صهيون، بتاريخ 1225، سفيراً من البندقية أسمه Foscarini، ووقع معه معاهدة تجارية، وسجن نحو عام 1227 أحد الفرسان الفرنسيين في القلعة وأسمه P.De Queivillers، فأعلم أبنه جمعية الاسبيتاريين، وكان من عادتها التفاويض لفك أسر السجناء المسيحيين، مقابل تعويض مالي، ولكن الأبن عاد يكتب في الثامن من أيار 1227م، إلى الجمعية المذكورة من مدينة عكا، يعلمها أن والده قد توفي في الأسر.

توفي الأمير منكورس في عام 1229، وخلفه ابنه مظفر الدين عثمان، فأصبح حاكم صهيون، وورث عن والده بعض المقاطعات الأخرى، وعقدت في عهده هدنة بين حامية صهيون والفرنج، كما يتضح من قرار أصدره بطريرك أنطاكية اللاتيني، ممثل البابا، وذلك بتاريخ 18 حزيران 1233، وقد أنهى هذا الأخير ذلك القرار، بناء على طلب من كبير جمعية الاسبيتاريين وكبير جمعية الهيكليين، بحكم فاصل يذكر الصعوبات الناشئة بين الجمعيتين المذكورتين، لدى عقدهما لاتفاقيات هدنة منفصلة، كل منهما على حدة، مع مسلمي جبيل (لبنان) وصهيون.

ثم يرد أسم مظفر الدين في عام 1257/1256، باعتباره صاحب صهيون، وبرزية، وبلاطنس، كما أن المغول إبان حكمه، وعلى وجه التحديد في نيسان 1260، قاموا بغزو سورية، ولكنهم هزموا في معركة "عين جالوت" بتاريخ 1260، حيث طردهم المماليك إلى ما وراء نهر الفرات، وأصبحت سورية تابعة منذ ذلك التاريخ لسلطة المماليك في القاهرة.

وعندما أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً في 24 تشرين الأول 1260 أمر أن يكتب إلى الأقطار المختلفة لإعلامهم باستلامه السلطنة، فمن بين الذين راسلهم بهذا الشأن الأمير مظفر الدين، صاحب صهيون، وأراد مظفر الدين في فترة الفوضى التي تلت غزو المغول، أن يوسع إمارته، غير أن الموت فاجأه في كانون الثاني/شباط 1261، يقال أنه توفي، بعد أن تقدم في العمر، ودفن في الحصن، وتثبت الكتابة العربية المكتشفة في دبشو والمذكورة سابقاً أن مظفر الدين كان قد توفي عما 1262، بعد وفاته أصبح ابنه عز الدين أحمد حاكماً على صهيون، وورث كل ممتلكاته بما فيها قلعة بلاطنس، وتخبرنا الكتابة الموجودة في قرية دبشو، والتي يعود تاريخها إلى 21 حزيران 1262، بأنه قد رفع مسجداً في قلعة بلاطنس.

وقد أوفد عز الدين أحمد بتارخ 7 تموز 1266، بعض نوابه إلى مدينة صفد عندما حاصرها السلطان الظاهر بيبرس، ثم سلم عز الدين في 19 أيار 1269 قلعة بلاطنس إلى نواب بيبرس، وعوضه السلطان عنها بقرية من أعمال شيزر، ونراه في عام 1270 يساعد بيبرس في محاولاته لاحتلال قلعة الحصن ثم يشترك في أثناء ربيع 1271 في الحصار، وفي المعركة التي سلمت بيبرس قلعة الحصن، وتوفي عز الدين أحمد عام 1272 بعد أن طلب من أولاده تسليم قلعة صهيون للسلطان بيبرس.

بعد وفاته وعوضاً عن الاحتفاظ بالقلعة فإن ولديه فضّلا أن يسلماه إلى السلطان بيبرس، لقاء مناصب في الدولة وفي الجيش، وكان مثل هذا الإجراء معروفاً آنذاك.

ويخبرنا المقريزي أن المبادلة تمت فعلاً في أيلول/تشرين الأول 1272. فيقول: ((في رابع ربيع الأول سنة 671هـ. تسلم السلطان صهيون من سابق الدين وفخر الدين ولدي عز الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكورس بعد موته، وكان هذا بوصيته لهما بذلك، فأمرهما السلطان، وأحسن إليهما، وقدم أهلهما إلى دمشق)).

على أن النويري يخبرنا بأن القلعة إنما سلمها إلى بيبرس سابق الدين، وعماد جلال الدين مسعود، ومجاهد الدين إبراهيم. نعتقد أن سابق الدين المذكور هنا هو الشخص نفسه الذي نراه يحكم صهيون عما 1280 كما ورد عند ابن الفرات، حيث يسميه سابق الدين دون ذكر أسم أبيه وإذا صح ذلك، يمكننا أن نفترض بأن سابق الدين هذا، عاد إلى صهيون قبل 1280 بعد تسليمها إلى الظاهر بيبرس، وربما حكمها آنذاك باسم السلطان.

- سنقر الأشقر (1280 - 1287م) -

في 9 كانون الأول عام 1279 أصبح الملك المنصور سيف الدولة قلاوون سلطاناً على القاهرة، فتمرد عليه شمس الدين سنقر الأشقر الذي كان آنذاك نائب السلطان في دمشق، وكان سنقر مقرباً من بيبرس، وكان قد سجن في بلاط فارس ثم أخلى المغول سبيله مقابل إعادة الأمير ليون الأرمني إلى أبيه، ((فلما ملك الملك المنصور سيف الدين قلاوون واستقل بالسلطنة خطر ببال الأمير شمس الدين سنقر الأشقر أن يستبد بسلطنة الشام فجمع الأمراء الموجودين في دمشق، ودعاهم إلى طاعته، واستحلفهم لنفسه، فأجابوه، وحلفوا له، وتلقب بالملك الكامل، وركب بشعار السلطنة وأبهة المملكة بدمشق)).

وكان ذلك في 26 نيسان 1280، وفي 3 أيار دخل في موكب حافل إلى دمشق، وفي اليوم التالي ألقى عظة في الجامع.

وعندما استقر وضع الأشقر في دمشق، أصبح عليه أن ينال تأييد باقي البلاد وهكذا: ((كاتب نواب القلاع بالشام، فمنهم من أطاعه، ومنهم من امتنع عليه، وكان ممن أطاعه نواب صهيون، وبرزية وبلاطنس وشغر -بكاس، وشيزر، وعكار، وحمص))، فكان أمير صهيون الذي نراه يحمل فيما بعد أسم سابق الدين سليمان، من بين الذين أيّدوا سنقر، ولم يعترفوا بسلطنة قلاوون.

لما وصل خبر تمرد سنقر الأشقر إلى القاهرة رأى السلطان أن يخيف المتمرد، فجمع بعض العساكر، وأرسلهم إلى الكرك (في الأردن)، عند ذاك بعث سنقر إلى قائد هذا الجيش برسالة يحذره فيها من التقدم إلى دمشق، وبالمقابل كتب قلاوون إلى سنقر يقبّح عليه فعله، ويحثه على الرجوع إلى الطاعة، فلم يرضخ سنقر، وبعث بجيش على رأسه العديد من الأمراء، ومن بينهم الأمير سابق الدين، صاحب صهيون، ودارت المعركة في غزو بين هذا الجيش من طرف وبين الجيش المصري من طرف آخر، فانهزم جيش سنقر، ووقع سابق الدين وبقية الأمراء في الأسر، ونقلوا إلى مصر في 7 أيار 1280، لكن قلاوون لم يوجه إليهم أي لوم، بل خلع عليهم وأطلقهم.

وفي عشية 10 حزيران 1280 نقل سنقر الأشقر، بعد تضعضع موقفه، حرمه وأولاده وأمواله من دمشق إلى قلعة صهيون، وبعد بضعة أيام (في 18 أو 20 حزيران) دارت معركة ثانية بين قوات السلطان قلاوون وقوات سنقر، انتهت بانكسار سنقر، فانهزم من دمشق بينما استلمها قلاوون، وفي هذه الأثناء توجه سنقر عن طريق القطيفة إلى الرحيبة، غير أن صاحبها رفض تسليمها إليه.

يخبرنا ابن الفرات أن سنقر طلب العون آنذاك من المغول: ((فعند ذلك كاتب شمس الدين سنقر الملك أبغا بن هولاكو يعرفه ما وقع بين العساكر الإسلامية من الاختلاف، وحثه على قصد البلاد بجيوشه، ووعده الانحياز إليه، والإعانة والمساعدة على ذلك))، غير أنه لم يتجاسر على دفع الأمور إلى حد التحالف مع المغول ومقابلتهم، فاكتفى بتلك الرسالة.

ولما سمع أن عساكر قلاوون خرجت من دمشق تفتش عنه توجه في البرية إلى صهيون وتحصن في قلعتها، وكان ذلك في أواخر تموز 1280 وقبل أيضاً في أيلول 1280.

رأينا أن أمراء بعض الحصون قد أعلنوا الطاعة والخضوع لسلطة سنقر، وهكذا فقد استمروا في ولائهم له، بعد استقراره في صهيون[1]، وأصبحوا نوابه في قلاعهم، وأصبح سنقر يحكم من صهيون: بلاطنس، وبرزية، وشغر بكاس، وعكار، وحمص، وبالتالي، كانت صهيون في صيف 1280 بمثابة عاصمة لمنطقة هامة من سورية لا تعترف بسلطة قلاوون.

سوف نرى لاحقاً أن هذه المقاطعة قدر لها أن تتوسع أيضاً وأن تضم إليها قطاعات أخرى. ثم هاجم المغول سورية من جديد في تشرين الأول 1280، ويرى ابن الفرات أنهم قد تشجعوا بسبب الرسالة التي تلقوها حول الانقسام في صفوف المسلمين، وهي

---

[1] يظهر أن سنقر أحضر معه جنوداً من منطقة الزبداني فاستوطنوا في القلعة وجوارها من القرى، وهذا يلقي الضوء على الموارد والأخبار الشفوية المتداولة في منطقة صهيون المتضمنة أن جد الصهاونة يدعى معروف، وهو من الزبداني وأن أهالي الزبداني أقرباء الصهاونة

على وجه التحديد رسالة سنقر المنوه بها، ولما وردت هذه الأخبار إلى دمشق، خرج من كان فيها من العساكر المصرية والشامية ونزلوا إلى مدينة حماه، وأرسلوا من هنالك دوريات استطلاع لرصد تحركات الجيش الغولي، كما بعثوا برسالة إلى سنقر الأشقر، هذا نصاً: ((قد دهمنا هذا العدو وما سببه إلا الخلاف فيما بيننا، وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط، والمصلحة أن نجتمع على دفعة))، وكان أن لاقى هذا النداء صدى في نفس سنقر، وقبل أمام الخطر المغولي بالتحالف المقترح، فأعطى الأوامر لجيشه فأقام حول صهيون، كما أن أمير شيزر نزل وخيم حول قلعتها، غير أن جيوش سنقر لم تجتمع إطلاقاً بجيوش قلاوون، وقد أراد صاحب صهيون أن يعبر بذلك أنه قبل التعامل فقط على أساس "اتفاق الكلمة ودفع العدو المشترك"، أما المغول فلم يكن هجومهم إلا بمثابة استكشاف، وصلوا في أثنائه حتى حلب، فهدموا المدينة، وعادوا أدراجهم.

في أيار 1281، أرسل السلطان قلاوون بعض جنوده لاحتلال قلعة شيزر التي كانت كما رأينا تابعة لسنقر، فبعث الأسقر يطلب الصلح على أن يسلم شيزر لقلاوون، ويعوض عنها شغر - بكاس (وكانتا قد أخذتا منه)، ومعهما أفاميا، وكفر طاب، وعدة ضياع، وأنطاكية، مع ما بيده من صهيون وبلاطنس واللاذقية، واشترط أيضاً أن يكون أميراً بستماية فارس، ويؤمر من عنده من الأمراء، فأجيب إلى ذلك.

ثم ترددت الرسائل في مطلع حزيران 1281 بين الملك المنصور وبين شمس الدين سنقر حول الصلح، على أن يعترف قلاوون لسنقر بالسلطنة على القلاع التي ذكرناها، وهكذا كان، فحضر إلى دمشق في 23 حزيران 1281 رسولان من قبل سنقر، ومعهما نسخة اليمين على ما تقرر، وفي 24 حزيران 1281 حلف قلاوون على ذلك: ((ونادت المنادية في دمشق بانتظام الصلح واجتماع الكلمة))، ثم رجع رسولاً سنقر إلى صهيون، ومعهما تقليد بالبلاد التي احتفظ بها سنقر بموجب الصلح، وحضر رسول قلاوون يمين سنقر وعاد إلى دمشق في أول تموز 1281، نودي

في دمشق بإجماع الكلمة، فعمت البشائر قلعتها، وسرّ الناس بذلك، وسير السلطان قلاوون إلى سنقر هدايا متنوعة، منها الأقمشة والأواني، ويقدم الأتابكي عرضاً مفصلاً للإتفاق فيقول: ((وصورة ما انتظم الصلح عليه أن سنقر الأشقر يرفع يده عن شيزر، ويسلمها إلى نواب الملك قلاوون، وعوّضه عنها بأفاميا، وكفر طاب، وأنطاكية، والسويدية، وشغر - بكاس، ودركوش بأعمالها كلها، وعدة ضياع معروفة، وأن يقيم على ذلك وعلى ما استقر بيده عند الصلح، وهو صهيون وبلاطنس وحصن برزية وجبلة واللاذقية بستماية فارس، وأنه يسلم الأمر إلى الملك المنصور قلاوون، ولكن، رفض قلاوون طلب سنقر بأن يدعى بلقب "ملك".

إن الكتابة العربية المنقوشة على الحجر والتي أشار إليها Berchem، لا شك في أنها تعود إلى الفترة اللاحقة لتوقيع الاتفاق، والحجر المذكور قطعة مربعة الشكل كانت ملقاة على الأرض في القلعة، غير بعيد عن الجامع، وقد نقش عليها أسم شمس الدين سنقر واسم الملك أشرف صلاح، ويعتقد أن هذا الأخير هو السلطان خليل أحد أبناء قلاوون.

هاجم التتر من جديد سورية في أيلول 1281، فبلغ خبرهم السلطان قلاوون، فنزل مع عساكره إلى حمص، وراسل من هناك صاحب صهيون داعياً إياه الحضور بمن معه من الأمراء والعساكر، فقبل سنقر شريطة أن يسمح له بالعودة بعد انقضاء المعركة، وهكذا، فقد غادر صهيون برفقة أمرائه، وعلى رأس عساكره، وكان وصوله إلى حمص يوم 27 تشرين الأول، حيث اجتمع مع السلطان، وقد سر السلطان سروراً كبيراً بقدوم سنقر ورفاقه، وأكرمهم وأنعم عليهم: ((وحصل الاجتماع والاتفاق على العدو، وعوامل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وجميع من معه بالاحترام.. وضرب له دهليزاً بمسيرة الدهليز المنصوري)).

وقد دارت المعركة بين العرب والتتر في سهل حمص، بعد أربع ساعات من بدء النهار من يوم 29 تشرين الأول 1281، وكان الجيش التتري يضم 80 ألف مقاتل، منهم خمسون ألفاً من التتر، والباقون من الأرمن، واليونان والفرنج، وكان السلطان

قلاوون قد رتب العساكر على الشكل التالي: وضع في الميمنة الجيش المصري والجيش الشامي بقيادة صاحب حماه، وفي الميسرة الأمير سنقر ومن معه، وكان في الميسرة أيضاً أمراء آخرون.

دارت رحى الحرب، فتغلبت الميمنة الإسلامية على ميسرة المغول، غير الميسرة الإسلامية انهزمت أمام الميمنة المغولية ولاذ بعض أمرائها وجنودها بالفرار، لكن ذلك لا يمنع ابن الفرات أن يقول أن: ((أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل سنقر الأشقر وغيره من القواد والجنود لما رأوا ثبات السلطان وتفوق الميمنة الإسلامية، ردوا على التتر حتى كان النصر للعرب قبيل الغروب، أما التتر فلاذوا بالفرار وأسرعوا إلى ما وراء الفرات، وبعد هذا النصر المؤزر حضر سنقر لتوديع السلطان، وعاد من حمص إلى صهيون.

وقد جرى حادث في أثناء المعركة، ربما أثر فيما بعد على شعور قلاوون تجاه سنقر، فقد وقع في ذلك اليوم أحد أمراء قلاوون على جماعة من التتر فأسرهم، ووجد مع أحدهم محفظة تحوي الرسائل التي كان قد وجهها سنقر وأصدقاؤه إلى المغول يحرّضونهم فيها على دخول سورية، ويبذلون الوعد بالمساعدة، فشاور الأمير المذكور السلطان في الأمر، وقد فضل هذا الأخير أن يطوي المسألة فطويت، ولم يطلع أحد على تلك الرسائل، ويظهر أن قلاوون بعد أن تم الصلح بينه وبين سنقر، وبعد ما رأه من اشتراكه في المعركة أراد أن يطوي الصفحة مسدلاً على الماضي ستار النسيان.

وها هو السلطان قلاوون يسير في نيسان 1285 من دمشق إلى قلعة المرقب، وكانت لا تزال بيد الفرنج، فحاصرها مدة ثمانية وثلاثين يوماً، حتى أخذها في 25 أيار، وكان قلاوون ينتظر طيلة فترة الحصار أن يحضر سنقر لتقديم يد العون، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل.

ويكتب بيبرس المنصوري بهذا الصدد: ((وظن السلطان أن الأمير شمس الدين الأسقر إذا سمع بقربه يبادر إليه ويسعى إلى

خدمته كما يجب عليه، فتأخر على الحضور، فتغير له باطن الملك المنصور)).

لذلك نرى السلطان يبعث إلى سنقر الأشقر برسول يلومه على مكاتبة التتر والاستنجاد بهم، ويدعوه إلى الحضور، فوبخه الرسول حتى وعد بإرسال ولده.

ولكي يتلاقى سنقر تأزم الأمر أرسل أحد أبنائه وهو سيف الدين: ((فخنق السلطان عليه ومنعه العودة إلى والده، وأمر بتوجيهه إلى الديار المصرية، وقد وجد في نفسه على سنقر الأشقر، لما ظهر منه من قلة الوفاء، وكثر الجفاء، وتكدير ما كان قد ترتب من الصفاء))، وكان أن احتفظ بأبن سنقر في مصر حتى عام 1287.

وأرسل السلطان قلاوون في السنة نفسها، أي في عام 1287، الأمير حسام الدين طرنطاوي، نائبه في الأراضي المصرية، ليحتل قلعة صهيون، فحضر إليها ومعه عساكر كثيرة، ونحن مدينون برواية مفصلة عن هذه الحادثة لابن الفرات، حيث يقول: ((فجرد السلطان نائبه بالديار المصرية الأمير حسام الدين طرنطاوي إلى صهيون، في جماعة كثيرة من العساكر، فنازلها، وراسله في تسليمها، وذكر له مواعيد السلطان الملك المنصور له فامتنع عن ذلك، فضايقه ونصب المجانيق حتى أشرف على أخذ حصن صهيون عنوة، فلما رأى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ذلك أرسل في طلب الأمان والإيمان، فحلف له الأمير حسام الدين طرنطاوي أن السلطان لا يضمر له سوءاً، فنزل إلى الأمير حسام الدين طرنطاوي، وسلم إليه الحصن، وحكى من ذكر أنه شهد كيف كان نزوله إليه وما عامل كل منهما الآخر به فقال: بينما الأمير حسام الدين جالس في خيمته إذ قيل له: ((هذا الأمير شمس الدين قد جاء!)) فوثب وأسرع المشي، وخرج إليه وتلقاه، فترجل الأمير شمس الدين وخلع الأمير حسام الدين قباء كان عليه وبسطه على الأرض ليمشي الأمير شمس الدين عليه، فرفعه الأمير شمي الدين عن الأرض، وقبله ولبسه، فأعظم الأمير حسام الدين طرنطاوي ذلك، وعامل الأمير شمس الدين بأتم الخدمة وغاية الأدب، ورتب

في الحصن نايباً ووالياً ورجالة، وسار هو والأمير شمس الدين إلى الديار المصرية، فلما قرب من قلعة الجبل، ركب الملك المنصور ووالده الملك الصالح علاء الدين علي، والملك الأشرف صلاح الدين خليل، وأولاد الملك الظاهر والعساكر، وتلقى السلطان الأمير شمس الدين، وتعاتبا وطلعا إلى القلعة، وحمل السلطان إليه الخلع والأقمشة والحوايص الذهب والتحف، وساق إليه الخيول وأمّره بإمارة فارس وقدمه على ألف، واستمر في الخدمة السلطانية من أكابر أمراء الدولة)).

بعد سنتين من احتلال طرنطاوي للحصن، أي في عام 1289 أحدثت ولاية طرابلس، وأصبحت صهيون اعتباراً من ذلك التاريخ إحدى النيابات التابعة لها، وأصبح يحكمها "متملك" باسم السلطان. نشاهد اليوم على جدار الحمام الشمالي في القلعة كتابة باسم السلطان المملوكي كبتغا هذا نصها: ((بسم الله الرحمن الرحيم عز مولانا الملك العادل المنوه المرابط المثاغر المؤيد المظفر المنصور.. الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين كبتغا المنصور أعز الله أنصاره وأدام اقتداره)).

وهو كتبغا العادل أحد السجناء المغول الذين أسرهم قلاوون في أثناء معركة حمص الأولى عام 1260، وكان السلطان قد أخلى سبيله في نهاية الأمر، وقد تسلطن بعد خلع الملك الناصر بن قلاوون في أول كانون الأول 1294 ونزل إلى سورية عام 1296 فخلع من السلطنة في أثناء غيابه، ليصبح فيما بعد "نايب حماه" (من 1299 حتى 1303)، فلا بد إذن وأنه كان قد أمر ببناء حمام صهيون في أثناء زيارته تلك إلى سورية.

ترى، فإلى أي عهد تعود الأبنية العربية التي نراها اليوم في القلعة ففيها دون شك، عدة أبنية رفعها المسلمون: جامع مع منذنته التي يبلغ ارتفاعها 17.5 متراً وبداخلها درج حلزوني، وبالقرب منه قاعة مقببة، بالإضافة إلى حمام ببوابة جميلة، وحمام آخر تظهر فيه الكتابة التي سبق التنويه إليها، هذا وإن البرج المشرف

على القسم الغربي، والذي أطلق عليه أسم برج بنات الملك، يعتبر أيضاً من بين الآثار العربية الباقية في القلعة.

سبق وقلنا إن الأمير منكورس عندما استلم القلعة من صلاح الدين حصّنها، ولكننا لم نعثر إلى اليوم على كتابة تحمل أسمه، وكما تحدثنا عن كتابة يظهر فيها أسم سنقر، كما ونجد كتابة تكاد تكون متعذرة القراءة وذلك على باب المئذنة، وهي تحمل أسم الملك المنصور سيف الدنيا والدين، وربما كان في ذلك إشارة إلى الملك قلاوون الذي كان يحمل هذين اللقبين، ونجد فيما بعد، أسم الملك ناصر الدين أحمد ابن قلاوون، على الجدار الخارجي لقبر موجود في الهضبة المجاورة. لقد بدأ العرب يسكنون القلعة منذ 1188، وليس من المعقول أن ينتظروا حتى نهاية القرن الثالث عشر، ليرفعوا فيها الأبنية، لذلك نعتقد بأن الأعمال لا بد وأنها بدأت في ظل منكورس ومن جاء بعده، ثم طالتها يد الترميم والإضافة في عهد سنقر، ومن ثم في عهد نواب قلاوون ومن جاء بعدهم.

- القلعة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر -

يقدم لنا الجغرافيون العرب وصفاً للحصن في النصف الأول من القرن الرابع عشر، يقول أبو الفداء: ((ومدينة صهيون بلدة ذات قلعة حصينة لا ترام من مشاهير معاقل الشام، وبقلعتها المياه كثيرة متيسرة من الأمطار، وهي على صخر أصم، وبالقرب منها واد، وبه الحمضيات ما لا يوجد مثله في البلاد، وهي من ذيل الجبل، من غربيه وتظهر من عند اللاذقية)).

يلاحظ أن أبا الفداء يتحدث عن: مدينة، وفي الوقت ذاته عن: حصن، ويظهر بالتالي أنه قد بينت مدينة فوق الهضبة، شرقي القلعة، في العهد المملوكي، هذا، وإننا نشاهد اليوم على تلك الهضبة أطلالاً مختلفة: منازل، قبور، مع عدد كبير من الآبار مما يدل على وجود تجمع بشري في القرون الوسطى.

أما الدمشقي فيقول: ((وحصن صهيون حصن منيع عادي، قديم البناء، يقال إنه من بناء أغسطس ملك رومية الكبرى المسمى قيصر، وليس هو أغسطس صاحب التاريخ اليوناني، وهذا الحصن صعب المرتقى، على قبة جبل، وعليه خمسة أسوار.

ويقول ابن بطوطة في رحلته: ((ثم سافرت إلى مدينة صهيون، وهي مدينة حسنة بها الأنهار المطردة والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالإبراهيمي، وقاضيها محيي الدين الحمصي، وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر، وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله.وقد زرت قبره)).

ويكتب العمري قائلاً: ((إن صهيون على ميسرة يوم من اللاذقية، وإنها حصن جميل كان مقراً لمتملك، وإن الملك الكامل سنقر الأشقر قد التجأ إليها)).

كما يكتب الظاهري في نحو منتصف القرن الخامس عشر: ((أما مدينة صهيون فهي مدينة لطيفة، وبها قلعة صهيون، وهي قلعة حصنية ولها إقليم بمفردها به عدة قرى، وهي من معاملة طرابلس)).

ويخبرنا ابن إياس أنه، في شهر رجب من عام 905 للهجرة، أي في شباط من عام 1500،((قرر سيباي في نيابة صهيون، عوضاً عن قنبك الشيخ بحكم فراره عند ابن عثمان، وخوفه على نفسه من القتل)). وربما كان سيباي هذا آخر من حكم صهيون، لأن العثمانيين، بعد استلامه بعدة سنوات أي 1516، احتلوا سورية. وكان أن هجرت قلاع عديدة آنذاك، ويبدو أن قلعتنا، هي أيضاً لم تعد مأهولة بالسكان بعد سقوط المماليك.

وقدر لقلعة صهيون أن تظل، طيلة قرون عديدة، مهجورة لوحشة كئيبة، وكان موقعها الناتي الصعب قد صرف عنها الأنظار، فلم تعد معروفة إلا من سكان القرى المجاورة، وترعرعت من فوق أسوارها، وحتى في أعلى أبراجها، ثم أصبحت الضباع وأبناء آوى تبحث عن مخابئ لها في تلك الخرائب التي كانت في يوم من الأيام سكنا للبيزنطيين، والصليبيين، والعرب، وبقيت كذلك حتى قيّض لها بعض الرحالة الأجانب ممن نبهوا العالم إليها، فارتفعت شيئاً فشيئاً من ظلمات الماضي السحيق... وها هي اليوم تشمخ بكل جلال وروعة الماضي، وكأنها متأهبة لاستقبال زوارها القادمين بأعداد غفيرة، يمتعون أبصارهم بتحصيناتها الراسخة المنيعة.

- عبر وعظات -

- وتقدير وتقويم عام للثورة -

بالطبع فنحن لسنا في سياق وصدد قصة محبوكة تنتظم أحداثها الممتعة المتفرقة ونثارها من أجل التسلية أو العنهجية وانتفاخ الأوداج، بقد ما نحن حيال حدث تاريخي عميق المجرى نغوص في لججة من أجل إقتناص اللآلئ والجواهر والأصداف لا الخشلبة.

وسوريا -صرخة العروبة - ليست بحاجة إلى أصوات تولول وعفائر ترتفع بقدر حاجتها إلى تعمق روح هذا الشعب لاستخلاص كنوزه والقبض على سبائكه الذهبية الصراح والنضار.

والعبرة من التقاط القانون الذي يحكم الظاهرة وينتظم حبات عقدها وليس في التقاط الحوادث الجزئية الفرادى التي سرعان ما تنهار كما تنهار قطعة الطين.

وفي نظرنا إن ثورة صهيون -مثل توأمتها ثورة هنانو وثورة الشيخ صالح العلي - تبقى جوهراً وذهباً نضاراً، وإن شاب أو علق على هذا الذهب بعض الرغام، كما يؤثر عن الشاعر العربي في قوله:

ولكن موطن الذهب الرغام...

والمتبع في كل تقويم أن تعرض كملاً مقومات اللوحة (لاند سكيب): اجتماعياً وحضارياً وتاريخياً الخ...، ثم تقفي ذلك، ومن خلال تشريح جثة هذه الصورة واستخلاص عناصر التقويم وجوهره...

ويقيناً أننا، لن نقف أبداً أمام الأحداث الجزئية والطحالبة والعارضة والأمشاج المتفرقة التي لا طائل منها في صياغة القانون العام.

ما هي القوانين التي يجب بسطها وتشريح جثثها واستخراج لآلئها؟

1 - إن سكان منطقة صهيون كانوا لا يزالون -فيما تسميه الأدبيات التاريخية - في طور البطولة، ولعل هذا القانون ولد على

أرض صهيون إبان عهد البطل صلاح الدين[1] وغذي ثم أخذ يمتلئ ويتعافى ويتعاظم شيئاً فشيئاً حتى أصبح بشراً سوياً، ولعلنا نأخذ نموذجاً مثلاً شروداً لهذا التقديس للبطولة في غزو أمريكا لعروبتنا في العراق، فقد جلست مراراً بين أهالي قرية الجنكيل، لأسمع منهم ترانيم البطولة وألحانها التي خلعت منهم على روح المرحوم صدام حسين.

ولعلنا نضرب مثلاً شروداً عن الصهاونة في الثعلب الذي أخذ يفترس دجاجات أحد الصهاونة، وقد قبض عليه المذكور وراح يسلخ جلده وهو حي وطبعاً أخذ الثعلب بالعويل ألماً لكن السالخ توجه ليقول: إنك جبان.

بهذا التفسير البطولي كان الغزو الفرنسي، رجس ودنس تصدى له أبناء المنطقة ووقفوا في وجهه وهذا بالضبط ما استطعنا أن نفهمه من ثورة الشيخ صالح العلي وثورة إبراهيم هنانو اللذين قررا تفجير الثورة بداءة من محض أنفسهم دون أن يكون المستعمر الفرنسي قد مسهم بأذى كما سبق الإشارة إليه.

فالحقيقة الجوهرية، هي لا يمكن لها أن تتبدل ولا يمكن للاستعمار أن يغير الماهية والوجود والأساس.

2 - هل نتذكر حادث مقتل الأمير عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم؟

فالصهيوني لا يرى أحداً فوقه ولا يسلم بإرادة تفرض عليه، فكيف إذن يخضع للفرنسي حتى ولو انتصر على الألمان في الحرب العالمية الأولى؟

أذكر شخصياً أن بعض وجوه وشخصيات المنطقة قرروا السفر إلى اللاذقية، لكن كان عليهم أن يثيروا مسألة من سيركب في مقدمة السيارة.

3 - هذان القانونان وغيرهما صاغا شخصاً جماعياً عاماً متماسكاً وقوياً لا تشوبه شائبة، وإن كان لا يوجد سلطة اجتماعية

---

[1] روى لي الفاضل محمد شاكر ياسين أن سكان قرية بكاس ساعدوا البطل صلاح الدين وقد جهزت الحملة على قلعة صهيون في هذه القرية وقد استغرق ذلك مدة ستة أشهر كما أن ابن أخيه حسام الدين استشهد هنالك

أو سياسية في المنطقة تسوس مركزياً المنطقة، بل السلطة هنا، - كما يقول علماء الاجتماع - غير محددة ومنبثه في كامل جسد المجتمع، ومن هنا قلنا ونقول إنه لم يكن في المنطقة زعيم إلا من ترضاه روح الجماعة وإرادتها العامة..

مثلاً واحداً نسوقه للتدليل على رأينا هو احتلال الثوار لجسر الشغور، فقد تولى الحكم في هذه البلدة المناضلون –عمر البيطار - أحمد كلية - شحادة زكريا - الحاج مصطفى المجبور - محمود عطور[1]، ثم المرحوم يوسف السعيد.

4 - هذه اللامركزية جعلت الثورة قرار يعتمد على الإسرة التي دارت حولها الأحداث.

5 - في هذا المناخ تكونت أمشاج الثورة لا سيما كرد فعل على تصرفات المستعمر الذي دأب على زرع الفتن وبث الشقاق، مما مكن هذا المستعمر أن يسيطر على بعض الأعوان في منطقة الشيخ صالح ومنطقة هنانو[2]، لكنه استحال عليه الأمر في منطقة صلاح الدين بسبب صلابة المجتمع، بل فهذه الصلابة تفسر رد الفعل القاسي من بعض الصهاونة الذي تطرف شيئاً ما ليخرج على النظام العام الوطني كما هو الشأن في فلول الشتا.

أجل هذا النظام العام النضالي الذي نشأ في تربة سوريا وغذي على يد أبنائها، وما فتئت تمده بالغالي والرخيص.

لكن هل فهم هذا الناموس ووعاه كل ثائر في منطقة صهيون؟؟...

ألا يمكن أن يكون هنالك من انحرف عن الفهم وبالغ في التقدير...

يروى لنا المرحوم آل الجندي أن الوجهاء الذين اشتهروا بالوطنية في بيت الشلف وهم: أسعد ميلي وأسعد كنجو ومحمد خليل في طرجانو والمزرعة والجنجانة، لم ينصاعوا للمستعمر بل أسرعوا لمساعدة ثورة الصهاونة، ولكن بعض المرتزقة من

---

[1] آل الجندي ص75

[2] كتابه ص24

أتباعهم –وخلافاً لإرادتهم - انضموا إلى المستعمر، فهل نقول إن منطقة بيت الشلف تعاونت مع المستعمر؟؟

إن أهالي الصقيلبية هوجموا من قبل جماعة الشيخ صالح العلي وبعض أفراد الصهاونة وبعض الأفراد من أتباع هنانو. ((وأنا شخصياً لا أعلم السبب ولا أريد معرفته))، ولكن هل كان هنالك مبرر لذلك؟؟

لقد قام الزعيم هنانو نفسه بتصحيح الخطأ وتنقية شوائبه.

وبنفس المقياس نتكلم عن حادثة بيت (صوايا).

هل نقول إن كافة الصهاونة ارتضوا ذلك؟؟

الأمر بالنسبة للمرحوم نورز طيبا وتصميمه الزواج كرهاً من ابنة البيلاني في المعرة، ذلك الحدث الذي تطايرت شرره وكان ما كان في قلب الجماعة السنية[1].

هذا ونستطيع أن نعدد أمثلة أخرى اجترحت في صفوف ثورة الشمال "هنانو" وثورة الجنوب "الشيخ صالح"، دون أن يؤثر على تقويم الثورتين أو تغيير جوهرهما...

ولنتابع الحديث من هذه الزاوية فنقول: معركة بابنا والجنكيل كان يوجد شخص تركي من "أنطاكية" يترأس عشرة أتراك اشتركوا مع الصهاونة وكان مقر عمله في حارة الجندي (الجنكيل)، وكان من مقاتلي صبحي بركات الذي أرتد على الثورة، وقد قتل المذكور على يد أصحاب هنانو[2].

نخلص من كل ذلك للقول والتدليل بأن رايات الوطن وأعلامه رفرفت على كل بقعة في سوريا وقد حملتها خفاقه سواعد الشرفاء من أبناء هذا الوطن ومالنا وما علينا إلا المزيد من تعميق الجذور والأصول كي يتاح نشر هذه الرايات على كافة ربوعنا العربية امتثالاً لقوله تعالى: ((هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون))

في غزوة "كفت القدور"، انتهى الرسول (ص) بعد لأي عظيم من الأعمال الحربية ليأتي إلى طعامه سائلاً الطهاة عن مصدر

---

[1] آل الجندي ص88

[2] آل الجندي ص90

الطعام فقيل له ليس الطعام من مال الغزو، هنا انبرى الرسول (ص) لكفت القدور غير المشروعة، رغم الجوع الشديد لدى مقاتليه، و نحن امتثالاً للقائد الأعظم، يجب أن نصحح كل انحراف على أرض هذا الوطن العربي الكبير على ضوء حادثة كفت القدور، فتكسب حينئذٍ الدارين.

قصة القاضي المسلم الذي أمر الجيش الإسلامي أن يخرج من سمرقند لأن الإنذار الموجه إلى أهلها لم يكن مشروعاً (زمن الخليفة الأواه المنيب عمر بن عبد العزيز).

و تبقى قصة الخروج هذه أسمى وأسمق باعتبارها رفعت الحق فوق الرجال و ليس العكس.

و نحن بدورنا نقف إلى جنب اللآلئ و نشجب بالتالي بعض الأخطاء العارضة في ثورة صهيون امتثالاً للقول: الحق فوق الرجال وليس العكس فهل من مذكر و هل من معتبر.

هنا نسدل الستار على ثورة صهيون و في الوقت نفسه نقول: هل من ينبري من جديد لكتابة ثورة الشيخ الجليل صالح العلي، البطل هنانو بهذه الروح نبراساً على الطريق و مشكاة للحق و الحرية؟؟

وترفع الأقلام وتجف الصحف لنناشد شباب منطقة الحفة ومثقفيها بإعارة هذه الثورة عنايتهم واهتمامهم ومدنا بمعلومات إضافية لديهم لإعادة النظر بكل خطأ أو تقصير، ولسان حالنا ما قاله الرسول محمد (ص): من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران.

ثـــورة منطقة الحفة

لاحاجة للقول بأن لكل بحث رؤيته ومنهجه، فالرؤية هي موضوع البحث ومادته وتصوره وروحه، والمنهج هو السبيل الخاص وطريق البحث المحدد المعين الذي ينتهجه الباحث للوصول إلى حقيقته ومبتغاه.

فالرؤية تستدعي المنهج وتحدده وتعينّه لأنه وسيلتها الخاصّة وطريقها المعيّن الذي يدور في فلكها، وهو في الآن نفسه جسدها ووطنها وروحها، قال تعالى موضحاً أهمية المنهج بالنسبة للرؤية: "ماء مهين في قرار مكين".

فماء الحياة ولو كان مهيناً ضعيفاً لا بد له من قرار مكين - الوسيلة - يحميه ويوطن ويوطد أركانه.